سلمى سلامة عبيد

هنا كانوا

سيرة ذاتيّة

هنا كانوا

التأليف: سلمى سلامة عبيد
لوحة الغلاف: مهدي البعيني
تصميم الغلاف: عامر قطيش
مراجعة عامة: إيهاب مفيد بوحمدان

الطبعة الثانية – 2018
إذن الطباعة رقم: 11538 - تاريخ 2017/5/16
جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة
obeidssalma@gmail.com

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي وسيلة من الوسائل سواء التصويرية أم الإلكترونية أم الميكانيكية، بما في ذلك النسخ الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو سواها، وحفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من المؤلف.

All rights reseved. No part of this Publication may be reproduced, stored in a retrieved system, or transmitted in any means: electronic, mechanial, photo copying, recording or other wise, without the prior permission, in wtiting, of the Author.

إنكليزيّات شقراوات تتلمّسهنّ أيدٍ خشنة!

كان الشابّ الأسمر شقيق جدّتي قد أحضرهنّ إلى عين عنوب، إنكليزيّات مغناجات معتادات على أن يتذلّل أمام سحرهنّ السلاطين. كم كرِهْن ملمس يديه الخشنتين.. بينهنّ وبين أيدي الفلاّحين الخشنة عداوة تاريخيّة!

استيقظ الشابّ عند الفجر ليستقلّ العربة مع سائق موثوق، كان قلقًا، فالمسؤوليّة كبيرة.. ماذا لو عرف بأمرهنّ أحد؟ الطريق من عاليه إلى عين عنوب مقفرة ويمكن اختطافهنّ بسهولة، ماذا لو اختفت إحداهنّ بشكل غير متوقع؟ يعدّهن ويعيد العدّ رغم تأكّده من وجود الجميع!.

جدّتي أمّ نايف كانت تقف أمام الباب، تتمتم بدعاء وعينها على الطريق منتظرة وصول أخيها..

- تأخّر.. اللهمّ اجعله خير..

أفراد أسرتها حولها يطمئنونها وهم أكثر قلقًا..

تصل العربة ويطلّ الأخ بوجه مبتسم، تمّت المهمّة بنجاح..

المستودع جاهز لإخفائهنّ فيه إلى وقت التسليم، وهو ليس له مدخل إلاّ طاقة في أرض الغرفة تتّسع لمرور شخص واحد، وعندما تُغطّى الطاقة بالحصيرة والسجّاد، لا يمكن أن يستدلّ عليه أحد.

تتأمّل جدّتي أمّ نايف الشقراوات وقلبها يدقّ بعنف.. أفكارها تتراكض مثل خيول برّيّة.. آلاف الذكريات الصغيرة تتسابق، وكلّ ذكرى تستحقّ أن تنال الصدارة..

تتذكّر ابنتها أمّون وهي تتسلّق شجرة التوت الشاميّ العملاقة لتقطف الكبوش حبّةً حبّة، تستعيد شعور الرعب عندما انكسر الغصن في أعلى الشجرة، وهوت من ذلك الارتفاع الشاهق. هل أنقذتها شجيرات الورد الكثيفة حين سقطت، أم صرخة الأمّ والأخوات التي وصلت إلى السماء؟

تتذكّر أيّام قطف الزيتون وسعيها لتأمين عمّال وعاملات، ولكنّ العمل في بيروت أقلّ إتعابًا وأكثر أجرًا.. زوجها الشيخ نعيم يعمل في الجنينة من الفجر حتّى المساء، فمن غيرها وغير الصغار للمهمّة العسيرة؟

تتذكّر عندما كانت الأمّ توقظ الأطفال قبل الفجر، يأخذون كتبهم ويصعدون باتّجاه كروم الزيتون القريبة من المدرسة.

تتذكّر الأيادي الصغيرة وهي تبحث عن حبّات زيتون لعوب متوارية تحت أوراق الحمّيضة التي تغطّي الأرض.. البرد قارس، وقطرات المطر الجليديّة تغطّي أوراق العشبة اللعينة، الأيدي تكاد تتجمّد من البرد، ينفخون عليها أنفاسًا دافئة ثم يعودون للعمل من جديد. الأمّ أمامهم ترندح مشجّعة:

يا إيدي خفّي خفّي.. استعجلي وملّي القفّي

تزيد من سرعة اللحن لتتزايد سرعة الأيدي الصغيرة.. يأتي الفرج حين يدقّ جرس المدرسة، يحملون كتبهم ويركضون باتّجاهها..

تتذكّر اجتماعهم عند المساء.. قنديل كازٍ شحيح.. وأيدٍ تحوّل الخيطان الرفيعة إلى منمنمات رائعة من شغل الإبرة. تتذكّر الصغيرة "جميلة" تراقب أخواتها بذكاء، ثمّ تمسك الكبكوب، ووسط دهشة الجميع، تنجح في صنع منمنمات تحاكي اسم صاحبتها..

تتذكّر وتتذكّر..

جمع ورق التوت لديدان القزّ الشرهة.. قطف الورد والزهر للمقطّرات.. طبخ الصابون.. تجهيز الخضار والفواكه في الصناديق لإرسالها إلى بيروت..

الجميع خليّة نحل لا تهدأ.. فالمدرسة الإنكليزيّة لا تقبل الرسوم إلاّ بالليرات الإنكليزيّة الشقراء التي اشتراها شقيق جدّتي بكلّ ما ادخّروه طوال العام.. تلك الليرات الشقراء التي سيخبّئونها في المخزن إلى أن يحين موعد دفع الرسوم.. وتعود الإنكليزيّات إلى رفيقاتهنّ في خزنة مدرسة الإنكليز، متخلّصات من ملمس الأيدي الخشنة!

مدرسة الإنكليز..

عندما كان القسّ الإنكليزيّ ذاهبًا من بيروت إلى سوق الغرب ليؤسّس مدرسة هناك، صادف طريق مروره من عين عنوب، توقّف مشدوهًا بجمال الضيعة الساحر، ووجوه أهلها الودودة الطيّبة، وقرّر أن لا يكمل طريقه إلى سوق الغرب..!

جاء بعض رجال الدين المتزمّتين إلى الشيخ أبو نعيم:

- عمْ بيقولو إنّو الإنكليز بدُّن يعمّرو مدرسة بضيعتنا وفيها كنيسة، بتقبل إنتْ يا شيخ.. بتقبل؟

ابتسم الشيخ الوقور الجليل:

- لَيش بيصلّو بالكنيسة لغير الله؟
- يا شيخ المدرسة مختلطة بنات وصبيان..

ويكون ردّ الشيخ أن يرسل أبناءه وبناته إلى المدرسة.. ويصمت المتزمّتون.. ويحذو حذو الشيخ أبو نَعيم معظم أهل الضيعة والقرى المجاورة..

تمرّ السنوات، ويرسل ابنه نعيم أولاده إلى المدرسة التي درس فيها.. وكان من أولاده أربع بنات صغيرات.. إحداهنّ أمّون.. التي ستصبح فيما بعد أمّ سلمى..

* * *

أربع بنات صغيرات.. يعدن من المدرسة.. يسرن بهدوء على طريق القادوميّة.. لا نياشين على الصدور.. ولا من يستوقفهنّ في الطريق ليقول لهنّ:

- أخذتو نياشين.. برافو عليكن يا شاطرين!

كان بعض أهالي الضيعة يتساءلون لماذا يصرّ الشيخ نعيم، والستّ أم نايف على دفع حفنة من الليرات الذهبيّة أقساطًا للمدرسة الأجنبيّة عن البنات الأربع "على الفاضي"؟..

كانت المدرسة الإنكليزيّة في عين عنوب تستقبل الطلاّب والطالبات من القرى القريبة والبعيدة. وفي نهاية كلّ يوم دراسيّ، يتمّ توزيع النياشين على الطلاّب المتفوّقين.. وكان الطالب الذي يحصل على النيشان يضعه على صدره، ويتبختر به في الضيعة متفاخرًا وصارخًا:

- شوفو أخذت نيشان..

وتصبحُ الضيعة بأكملها في عيد لأنّ ابن الضيعة قد حصل على نيشان..

بنات الشيخ أبو نايف نعيم كنّ يعدن دون نياشين على الصدور.

الضيعة تستقبل صاحب النيشان بالتهنئة والورد والملبّس على قضامة.. فعين عنوب فازت بالنيشان من بين كلّ القرى التي ترسل أولادها إلى مدرسة الإنكليز: شملان، بشامون، عيناب، عيتات، الشويفات وغيرها الكثير..

يتبختر صاحب النيشان مثل ملك من حيّ إلى آخر.. ويصل إلى البيت، فيستقبله الأهل والجيران بالتهاني والهدايا.

بنات أبو نايف لا يهنّئهنّ أحد.. ولا يسألهنّ الأب والأمّ عن المدرسة.. فهما يعرفان الجواب..!

تعود الصغيرات من المدرسة.. يأخذن أقصر طريق إلى البيت.. يسرن بهدوء.. ولا تكفّ بعض الألسنة عن طرح السؤال:

- حفنة ليرات ذهب كلّ سنة منشان تعليم البنات بالمدرسة الأجنبيّة! شو حاجة البنت للتعليم؟ على الفاضي..

كان الشيخ أبو نايف وأمّ نايف يُجيبان:

- العلم قبل الأكل والشـــرب.. وتعليم البنات أهمّ من تعليم الصبيان..

تعود البنات الأربع الصـغيرات كلّ يوم من المدرسـة.. دون نياشـين على الصـدور.. لأنّ الضـيعة وكلّ القرى المجاورة تعلم أنّ بنات الشـيخ أبو نايف نعيم كنّ الأُوَل..

وأنّ النياشين التي لم تكن على الصدور كانت في حقائبهنّ بين الكتب.. وبين الضلوع.. نياشين أخرى..

نياشين بشكل القلب.. ولون القلب.. ودفء القلب.

جدّتي أمّ نايف

عندما جاء الشـاب نَعيم بعروسـه من عاليه، زحفت الضـيعة للتهنئة والفرجة على العروس "المسـتوردة!" العريس في لبنان كان على مدى التاريخ من المخلوقات المهدّدة بالانقراض! فالشـبّان يركبون البحر ويرتحلون، وقد يعود كثيرون، وكلّ منهم يتأبّط ذراع سـنيورة شـقراء من بلاد الاغتراب، فيأتي الشاعر ليقول:

تغرّبنا.. وجبناها غريبي

زوان بلادنا ولا قمح الصليبي

لكنّ قمح الصـليبيّ تُغريه تربة الشـرق الدافئة الخصـبة، وسـنابل الصليبيّ الشـقراء مرغوبة في كلّ مكان وزمان!! وكأنّ الاغتراب لا يكفي، فشـباب لبنان يذهبون وقودًا لحروب داخليّة وخارجيّة. يرحلون ولا يعودون، حتّى أصبحت النساء "تسمّي الديك بو قاسم"!.

هذا إذا كان العريس العاديّ كنزًا يجب المحافظة عليه، فكيف إذا كان زينة شـباب الضـيعة وسـامةً وعلمًا وأصـلًا وفصـلًا. كانوا يتوقّعون أن يشاهدوا عروسًا يدير جمالُها الرؤوس.. عروسًا فارعة القامة، خضراء العينين، لها وجه أبيض ناصـع يقول للقمر: "انزل لأقعد مطرحك".. وإذا بهم أمام شـابّة عاديّة يوجد مثلها العديدات بل وأجمل منها في الضيعة.. كان من المفترض أن تستقبل الدخيلة بفتور، ولكن ما كادت تمضـي بضعة شهور حتّى نالت العروس رضا أهل الضيعة وإعجابهم، وتأكّد لهم أنّهم لم يخسـروا عريسًـا، بل كسـبوا عروسًـا كانت بركة للضيعة كلّها..

كان للعروس "المستوردة" وجه مستدير جذّاب الملامح، وعينان سوداوان تُشعّان ذكاءً وحنانًا وحيويّة، وشعر فاحم ناعم طويل يكاد يلامس الأرض.. العروس كانت ابنة شيخ جليل المقام من آل الفقيه، ووالدتها الستّ (بدور) كانت مضرب المثل بالجمال والذكاء والحكمة والمنزلة الاجتماعيّة، وقد شاء لها القدر أن تتزوّج الرجل العظيم الثراء منصور ناصر عبيد، وقد كان يقترب من الشيخوخة، وتنجب منه ابنة وحيدة، ولأنّ الشابّة الجميلة لا يصحّ أن تبقى دون زواج، فبعد وفاة زوجها العجوز، زوّجها أهلها مرّة ثانية، لتلد البنين والبنات في بيت زوجها الجديد من آل الفقيه.. كانت الستّ بدور معتادة على تحمّل المسؤوليّة، فزوجها الثريّ المسنّ كان بحاجة إلى ذكائها وحكمتها ونشاطها، وقد ربّت أولادها من الزوجين الأوّل والثاني على حبّ المعرفة، وقوّة الشكيمة، وعلى الإحساس بالمسؤوليّة.

جلبت العروس إلى عين عنوب اختراعات لم تكن تعرفها الضيعة من قبل: أحدها كان قطعة حديديّة مجوّفة من الداخل لوضع الجمر وتسخين الحديد، فما إن تمرَّر على الملابس حتّى تعود كأنّها جديدة، وكانوا يطلقون على هذا الاختراع اسم: "المكواية"! كما كانت تبتكر طرقًا جديدة لزيادة دخل الأسرة، وهذه الأفكار تنتقل من بيت إلى بيت، وتساعد نساء الضيعة على أن يُصبحن منتجات لأنواع مختلفة من الصناعات الغذائيّة والحرفيّة.

وتحوّل البيت القرويّ إلى فردوس جميل، فشجيرات الورد الجوريّ كانت تنتشر في كلّ مكان.. في الأراضي الواسعة المحيطة بالبيت، وعلى جوانب الطريق التي تقود إليه، وعلى ضفاف الوادي المجاور.. بل كانت في كلّ عام عند تقليم الشجيرات، تبحث للأغصان المقتطعة عن تربة مستعدّة لاستقبالها، في أيّ مكان داخل القرية أو خارجها..!

كان لزراعة الورود هدفٌ جماليٌّ وآخر استثماريّ؛ فبعض هذه الورود كانت توضع في "الكركي" لتتقطّر إلى ماء ورد، وأشجار الليمون العملاقة المحاذية للوادي كانت تغذّي الكركي بزهور عطرة، تتحوّل إلى ماء زهر فاخر، يتهافت الصيادلة وأصحاب محالّ الحلويات على شرائه.. أدخلت أيضًا إلى بيتها تربية دود القزّ الذي كان يدرّ على الأسرة دخلًا محترمًا، برغم شراهته الكبيرة، وصعوبة العناية به.. في الشتاء عندما يجلسون إلى جانب الوجاق، كانت أمّ نايف تصنع أبدع القطع من شغل الإبرة أو شغل (السنّارة).. وفوق كلّ هذا ما كانت لتقصّر بواجباتها تجاه زوجها وأطفالها وأهل ضيعتها.. سطيحتها كانت مقصدًا لأهل الضيعة حيث يستمتعون بمنظر الزنابق البيضاء والفلّ والياسمين.. ونباتات أخرى عجيبة غريبة مثل نبات تنكمش أوراقه عند لمسه، لم يكن له اسم فأسموه "المستحيّة"..

أثبتت أمّ نايف أنّها أهل لتحمّل المسؤوليّة، فكان زوجها الرومانسيّ الذي يحبّ الطبيعة، ويكره الأرقام، يعتمد عليها في إدارة شؤون البيت اعتمادًا كلّيًّا، واثقًا بحكمتها وحسن إدارتها.

أبو موسى

يأتي أبو موسى إلى عين عنوب كلّ ثلاثاء مناديًا:

- تازة يا سماااك.. بزري يا سمااااك.

يكون حاملًا سلّة سمك سلطان إبراهيم باليمين، وسلّة السمك البزريّ باليسار. كانت جدّتي أمّ نايف تشتري من السلّة اليسرى، وتترك لنا أن نحلم بالسمك في السلّة اليمنى.

يبدأ مشواره من بيت الشيخ أبو نايف. الستّ أم نايف تناديه "بو موسى"، ولا تناديه: "يا بيّاع السمك" كما يفعل الآخرون، تشعره بأنّه إنسان وله اسم، وليس سلّة سمك متحرّكة.

يغرف من سلّة سمك البزري الصغير ويضع في الميزان. لا تسأله جدّتي عن السعر ولا تفاصله. سنوات وهي تشتري السمك من "بو موسى"، تنظر إلى حذائه المثقوب وبنطاله المهلهل، وتشعر به ربّ أسرة مسؤولًا عن زوجة وأطفال.. يدور طوال النهار صيفًا وشتاءً حاملًا سلال السمك الثقيلة، وسلال الهموم الأثقل.. أبو موسى يعلم أنّ أمّ نايف هي من جماعة "البزري يا سمك"، ولا يغامر بأن يخسر زبونة دائمة، زبونة يتفاءل بوجهها الحنون البشوش، وإنسانيّتها الدافقة وهداياها الكثيرة.

يوضع السمك في الوسط، وتتجمّع حوله الصبايا لتنظيفه، وتتجمّع القطط بتهذيب بالغ منتظرةً دورها، وتأتي الزلاقط بتهذيب أقلّ، وقد لا تنجو الصبايا من لسعةٍ يُعالجنها ببعض الثوم، ثم يَعُدنَ للعمل من جديد.

ينطلق أبو موسى من جديد، مغـيّرًا نداءه وهو يقـترب من بيت عـمّي عجاج، وغـــيره من البيوت المغطّاة بالقرميد: "ســمك يا ســماااك.. سلطان إبراهيم يا سمااااك"..

سـمك الـــبزري هو لسـطوح "المَدْحلة"، والسـلطان إبراهيم لسـكّان البيوت المغطّاة بالقرميد!

* * *

ينتهي من بيع السـمك، ويمرّ بعد الظهر بسـلاله الفارغة من أمام بيت الشيخ أبو نايف وينادي:

- يا شيخ بو نايف.. يا ستّ إم نايف بتوصّونا شي؟

تُداعب خياشـيمه رائحة "الصـفوف"، تلاحظه أمّ نايف وهو يتشـمّم حوله، وفتحتا أنفه تتحرّكان بجنون فتسأله:

- كيف حال إم موسى؟؟

وأمّ نايف ذكيّة وتعرف الجواب سلفًا!

- إمّ موسى عبتتوحّم..

تتسـاءل بينها وبين نفسـها إذا كانت أمّ موسـى هي التي تعاني من حالة وحام مُزمنة، أم أنّ أبو موسى هو الذي يتوحّم!

تحضـر له قطعة وافرة من الصـفوف، حضّـرتها أمٌّ محِبّة لأطفالها، اجتمع فيها كرَم الأمّ وكرَم أشجار اللوز والجوز حول البيت.

يجلس مع أبو نايف وأمّ نايف، يشعر بنبض الحياة والمحبّة من حوله.. يسـألانه عن أخبار الأولاد، أخبار بـــيروت والبحر والصـيّادين.. يتكلّم ويتكلّم، وكأنّه يريد أن يتأكّد من أنّ عبارته الرتيبة "سمك يا سمك" لم تنسه اللغة البشريّة.

يكون أبو نايف قد حضّـر له بعض الفواكه والخضـار هديّة للعيال.. يختار له الأفضـل، فأبو موسـى أينما ذهب يُعطونه ملابس لا يريدها أحد.. أطعمة ليس لها طعم.. قمامة يأخذها مضـطرًّا وتزيد إحسـاسـه بالقهر.. يتحوّل بعد الظهر من سلال سمك متحرّكة إلى سلال قمامة.. أبو نايف لا يُذلّه، يُهديه الأفضل مع كلمات ودّ صادقة:

- إنت زلمة آدمي يا بو موسى..

يسير صوب عين الزغـيرة، يغسل سلال السمك بعناية، يغسل يديه ويفركهما بأوراق النعنع الـبرّيّ، يستنشـق أريجها المنعش، يطمئنّ إلى أنّه لم يفقد حاسّـة الشـمّ من كـثرة ما عشّـشـت في خياشـيمه زنخة السـمك.. رائحة النعنع تُداعب خلايا أنفه.. توقظها.. تتحفّز لالتقاط رائحة أخرى، رائحة الحلوى المشـبعة بماء الزهر.. تمتدّ يده إلى قطعة الصـفوف.. يقاوم.. يتخيّل وجه أمّ موسى عندما ترى القطعة الشـقراء بلون الـذهـب.. عنـدمـا تقرمش حبـآت اللّوز والجوز، وتتلـذّذ بطعمهـا الخرافيّ.. تنهار مقاومته.. ينهش القطعة بنهم..

يُغمض عينيه ليُخبّئ تلك اللحظة في أعماق ذاكرته المجدبة من الفرح.. عيناه الكابيتان مثل عيني سمكة نافقة تُشرقان من جديد..

يدعو لأمّ نـايف وأبونـايف من أعمـاق قلبه.. بعثـا في داخله الإنسـان الذي كان قد دفنه القهر والذلّ والحرمان..

إنسانٌ هو.. لم يعد سلّة سمك متحرّكة.

ابني حسّان

- وقع ابني حسّان.. وقع ابني حسّاااااان..

تجمَّعن حولها.. أصـــواتهنّ عالية ومتداخلة.. ولكنّها ما كانت قادرة على سماع صوت آخر.. غير صوت صراخها المجنون..

حسّـان ابنها الوحيد.. كم احتارت قبل أن تختار له اسـمًا.. اسـتعرضت كلّ الأسماء الـــتي سمعتها والـــتي لم تسمعها.. اليوم أصبحَ عمره ستّة أشـهر.. سـتّة أشـهر وهي تغـــنّي له كلّ ما تعرفه من أغانٍ، وتخـــترع له أغاني أخرى.. تضـمّه إلى صـدرها ليلًا لِتُدفّئه.. تجلسـهُ في حضـنها وهي تأكل، تتأمّل وجهه المُبتسـم.. لم تكن لـــتفترق عنه، وكأنّ هاجسًـا كان يقولُ لها: إنَّ الحياة لا تستطيع أن تَحتمل كلّ هذا الحبّ.

كانوا يسـكنون شـقّة في الطابق الرابع من حيّ عائشـة بكّار في بـــيروت، والطوابق الإســمنتيّة تخنق، تمتصُّ نســغَ الحياة، تحوّل الإنســان إلى مخلوق مُحنّط.. ما باليد حيلة فقرار الســكن في هذا المكان لم يكن قرارها.

حسّـان كان يحبّ أن يرى العشـب والورود والشـجر، والقطّة البيضـاء الـــتي كانت تنظر إليهم فيبدو لهم أنّها تبتسـم.. رفعته لـــيرى حديقة الطابق الأرضيّ.. ولا تعرف كيف حدث ذلك.

سـقط من يدها.. وتابعته وهو يتهاوى، ونفس الابتسـامة الصـامتة على وجهه.

كـان يلبس بـدلـة بحّـار.. رأت قميصـــه الأبيض والبنطلون الكحليّ يصبحان أصغر فأصغر.. وسـقط قلبها عندما ارتطم بحّارها الصـغير بالأرض..

كم قالوا لها أن تنتبه، ولكنّ حسـان ابنها، وهي تعرف أنّه يختنق إذا بقي محبوسًـا بين الجدران، تمامًا كما تختنق هي إذا لم تتنفّس اللون الأخضر..

المصيبة أنّه لم يسقط وحده.. هي التي قتلته..

تجمّع الجـيران على الصوت المفجوع.. تناقلوا الخـبر: "حسّان وقع من الطابق الرابع".. لم يعرفوا من هو حسّـان؟ هل في العالم أحد لا يعرف ابنها حسّان؟

جاءت إحدى الجارات تخشخش بأساورها الذهبيّة، ومؤخّرتُها الكـبيرة تتأرجح يمينًا ويسـارًا، نظرت إلى الطفلة الثكلى ذات السـنتين وقالت ببرودة ولا مبالاة:

- كلّ هالزعيق منشان لعبة كاوتشوك حقّا ربع ليرة..!

* * *

لا أحد كان قادرًا على فهمي غير جدّي أبونايف نعيم.. بعضهم أعادوا لي لعبة الكاوتشوك، وحاولوا إقناعي بأنّها لا تزال سليمة كما كانت.. وبعضهم اقترح أن يشتروا لي لعبة مشابهة أو لعبة أكبر وأجمل.. ولكنّهم لم يفهموا أنّ حسانّ قد مات، وهو ليس لعبة.. إنّه ابني حسّان.. جدّي فهمني، واساني دون كلمات.. وعندما أراد العودة إلى عين عنوب قال لوالدتي:

- خلّيها تطلع معي عالضيعة بتغيّر جو..

وهكذا كان، واستمرّت الزيارة.. ثلاث سنوات!

الحبيبة

عندما جاءت العروس من عاليه إلى عين عنوب، وجدت أنّ قلب زوجها نعيم مُتعلّق بأخرى..

كان عليها أن تتحمّل الوضع وتتأقلم معه.. زوجها كان يُحبّها حبًّا عقلانيًّا هادئًا.. يحبّ وجهها الطافح بالبِشـــر والحنان.. يحبّ ذكاءها ونشـــاطها ونجاحها في أن تكون ستّ بيت من الدرجة الأولى..

أمّا الولَه.. ذلك القدر الذي لا مهرب منه.. ذلك العشق الصاخب الذي لا يعرف الحدود، فقد كان للحبيبة..

أصبح العروسان والِدين لأبناء وبنات، ولكنّ الحبيبة بقيت متربّعة على عرش القلب حـــتّى آخر لحظة.. حـــتّى في سكرات الموت كان الشيخ أبو نايف يوصي بها ويهذي باسـمها.. وهي كانت تطالب بحقّ قدسـية الحبّ ألاّ تفترق عن حبيبها يومًا واحدًا، وبقيت مصرّة على أن يزورها العاشق المتيّم كلَّ يوم صـيفًا أو شـتاءً، برغم بعد المسـافة وأخطار الطريق إلى بيتها البعيد..

كبر الأولاد وأنجبوا أحفادًا، وانتقلت إليهم عدوى هذا الحبّ، أصـبحوا هم أيضًا يتلهّفون للتملّي من جمالها السـاحر، وذلك الغموض الملائكيّ الذي يحيط بها..

الحفيدة الصـــغيرة كانت الأكثر تعلّقًا بها.. ولا تزال ذكرى زيارتها حيّة في تفاصيلها بعد عشرات السنين..

في الليلة السـابقة للزيارة تُزفّ البشـرى! نغمض عيوننا دون أن نغفو، نبدأ بالتململ قبل الفجر، ولكن للذهاب إلى ذلك المكان البعيد سـاعة معيّنة، قبل الضوء لا نرى الطريق، وبعد طلوع الشمس تخرج الأفاعي.. إذن لا بدّ أن يتمّ تحديد لحظة الانطلاق بكلّ دقّة..

يأتي السؤال التقليديّ الذي لا بدّ منه:

- طريق الدورة أو القادوميّة؟
- القادومييييييّة..

يـأتي الجواب اختيـارًا جمـاعيًّـا!.. لا بـدّ لسـحر الزيـارة أن يكتمـل، والقادوميّة جزء من ذلك السحر..

كانت الجدّة في كلّ مرّة تحاول إقناعنا بمشوار أقلّ إجهادًا وأقلّ خطرًا.. ولكنّ إصرارنا المستميت ينتصر في النهاية، فتُعلن استسلامها قائلة:

- الله يقدّرني عالصبر عليكن..

كان الجدّ يسـبقنا للتأكّد قدر الإمكان من سـلامة الطريق.. ولو أنّه كان مؤمنًا بـأنّ ملائكة الحبّ التي تُتابعنا علـــى طول الطريق، كانت هي الحارس الذي لا يغفل..

ننحدر نحو الغرب، وبين الحقول الغافية تحت عباءة الضباب، تتراءى لنا صـخور بيضـاء عملاقة، تبدو كبيوض طائر خرافيّ، وحبّات ندىً تسـتقبل أولى خيوط الشـمس.. نمرّ من أمام بيت مهجور، وتتكرّر الحكاية والتعليقات..

صاحبة البيت أنجبت ابنها الأوّل بعد ستّة أشهر من زواجها! مَن تنقل هذا الخـبر عليها أن تمسك ثوبها بسبّابتها وإبهامها من منطقة الصدر، تنفضه قليلًا وتقول:

- مِشْ عا ذمّتي!

رحلت الأسرة إلى المهجر هربًا من الشائعات التي لم تكن على ذمّة أحد! وظلّ الناس سنوات بعدها يذكرون القصّة كلّما مرّوا من أمام البيت..

نصل إلى عين الطاحون:

- بيقولو هالعين بتشفي من كلّ علّة، اشربوا قَدْ ما فيكن.

يأتي كلٌّ بدوره، يكوّر يده كالكوب ليملأها ماء.. الماء بارد كالثلج، نشرب.. نتراشق بالماء.. ونتبارى في من يستطيع أن يُبقي يده تحت المزراب مدّة أطول، متحمّلًا برودة الماء الجليديّة..

نصل إلى عين أخرى محاطة بأشجار جوز عملاقة، ونراقب بفرح قرقدانًا يلاحق قرقدانًا من غصن إلى آخر.. كم حزنت عندما علمت أنّ هذا المخلوق المرح الجميل يسمّى سنجابًا.. اسم بارد ثقيل.. أين منه ذلك الإيقاع السريع والمرح الذي يميّز كلمة قرقدان!

نقترب من الشير.. نتوقّف لنتأمّل منظر البحر عند الشروق.. نشعر بقلوبنا تدقّ ونحن نزداد اقترابًا من الجميلة.. يزيد من روعة المكان منظر الجبل الذي يبدو كأنّ سكّينًا عملاقًا قد قطعه نصفين.. وهوَّة دون قرار، تكسوها عتمة الصباح بغموض أخضر ساحر.. الدرجات التي تنحدر إلى مجرى الوادي مغطّاة بأشنيّات زلقة:

- هون زحطت بقرة عمّي عجاج، وقعت لكعب الشير وما حدا قدر يوصل لها..

اليد تمسك باليد، والقلوب تدقّ بجنون.. جنون الخطر والجمال العصيّ على الوصف للبحر والجبل.. وذلك الشوق السحريّ لحبيبة الجدّ..

نسير على حبل بين الموت والحياة، في لحظة تشحن الجسد دفقة من حبّ البقاء، تكتسح كلّ مشاعر الملل والرتابة.. فالجزء الأخير هو الأكثر

خطرًا. طريق محفورة في خاصرة الجبل، لا يزيد عرضها عن متر واحد، السير عليها يجب أن يكون في رتل أحاديّ متماسك الأيدي.. تمسك إحدى الخالات باليد اليسرى للطفلة وتسير أمامها.. والثانية باليد اليمنى وتسير خلفها.. تتعالى دقّات القلب مثل موسيقا تصويريّة في فيلم رعب، للسير أصول: يجب أن نسير بخطىً سريعة ولكن هادئة، لأنّ صخورًا قد تحتجّ على مرورنا المتطفّل، وتتدحرج من الأعلى وتقتلنا.. والسرعة يجب أن تكون مدروسة، لأنّ أيّ حركة خاطئة قد تنتهي بنا إلى قعر الشير..

يتحوّل كلّ واحد منّا إلى مخلوق متوحّد مع الكون، فيُصبح في تلك اللحظة قطًّا برّيًّا:

الأعصاب مشدودة.. حدقات العيون تتوسّع حتّى تكاد تحتلّ كلّ مساحة الوجه.. الأذنان تنتصبان لتصيدا أدنى إشارة خطر..

- ما تتطلّعي بالشير بتدوخي وبتقعي..

ولكن هل كان بإمكان الطفلة أن تقاوم إغراء النظر إلى الشير، والتلذّذ بذلك الخوف النبيل والجليل والجميل؟

نجتاز منطقة الخطر.. ومن الجهة المقابلة ينطلق صــوت رجوليّ جبليّ آسر، ربّما زاده منظر خالاتي الجميلات عمقًا وشجنًا:

يا بحر خذني معك ويا مــوج ودّيـني
سافر حبيب القلب مين بدّو يسلّيني

الشير يُردّد الصوت كأنّما يعطي إشارة لمراسم الاستقبال.. الحساسين تنطلق مغرّدة.. ومعها الضفادع وصراصير الحقول متمازجة مع خرير المياه وحفيف الشجر.

ويأتي الشيخ نعيم لاستقبالنا، وخلفه حبيبته الآسرة الجمال..!

حبيبة الشيخ نعيم لم تكن امرأة.. كانت بستانًا أبدعته ملائكة الجنّة أشجارًا وورودًا وسواقي مياه.. ومخلوقات تُدرك أنّ هذه الأرض هي سفينة نوح يتعايش فيها الجميع مطمئنّين إلى سلامتهم..

الشيخ نعيم لم يُطلق على حبيبته اسم (بستان) أو (مزرعة) أو (حقلة) فقد كانت جنّة صغيرة.. كانت (جنينة).. جنينة عين الطاحون..

أسترجعُ ذكرى الشيخ نعيم واقفًا لاستقبالنا..

ملاك على باب الجنّة..

حكايات المساء

نعود من رحلة عين الطاحون عند المساء مُتعبين، ولكنّ قلوبنا تفيضُ بالفرح.. يكون الماء الساخن والصابون بانتظارنا.. صابون يُصنع في المنزل من زيت الزيتون الصافي والقطرون..

يأتي معلّم الصابون من بشامون ليطبخ مؤونة العام، وكمّيّة إضافيّة للبيع. يوضع الدست وفيه المقادير اللّازمة على نار موقدة الحطب. وبعد الانتهاء من طبخ الصابون، يُسكب السائل على الأرض المُمهّدة المغطّاة بورق الصحف.. ينتظرُ معلّم الصابون إلى أن يُصبح السائل جامدًا، ويقطّعه بمهارة إلى مكعّبات متساوية، ثمّ يضع ختمه "أبو إبراهيم" على كلّ قطعة صابون، دلالةً على أنّ القطعة هي من زيت الزيتون الصافي، وأنّها طُبخت بحِرفيّة عالية..

في السهرة كنّا نتسّلى باستخراج "الكنوز"! من خزانة جميلة مطعّمة بالصدف.. علبة من التنك فيها صورٌ جميلة لأفراد العائلة، التقطها مصوّرٌ أرمنيّ بارع، كان يدور على البيوت وهو يحمل عدّة التصوير، إضافةً إلى صور التقطها والدي بكاميرا عاديّة، وقام بتحميضها بنفسه.. في علبة أخرى كانت رسائل تأتي من المهجر، فيقرؤونها مرّات ومرّات، ويحتفظون بها مثل تمائم.. وكان أكثر ما يستهوينا مسبحة ضخمة من العنبر الذي حبس في داخله حشرات، ومخلوقات عجيبة غريبة لا يعلم عمرها إلاّ الله.. وفي علبة ثالثة سجلّ علامات وجوائز من مدرسة الإنكليز، تعود لجدّي وخالاتي وأخوالي.. وكان أحد أدراج الخزانة متحفًا حقيقيًّا لأشغال الإبرة والمطرّزات وشغل الصنّارة..

ويترافق اســتعراض الكنوز مع شــروحات ممتعة عن كلّ منها، لا نملّ من سماعها.

تنتهي السهرة باكرًا، وكما في كلّ يوم تُمدّ الحصر في الغرفة الواسعة، الحصــيرة بجانب الأخرى، ثم تُخرج الفُرشْ من (اليوك) لينام عليها النســاء والأطفال.. وغرفة النوم الأخرى هي للرجال الذين لم تلتهمهم الغربة بعد.. في الغرفة الواســعة هناك ســرير لمن يرغب، ولكنّنا كنّا جميعًا نحبّ التجمّع بعضنا حول بعض مثل هررة صغيرة..

أندسُّ بين خالتي جميلة وخالتي بهيّة، فتدغدغان أســفل قدمي، وتدندِنان:

دِبّي كلي.. دِبّي اشربي.. خلّي البنت.. وخلّي الصبي

وأكتشف لاحقًا أنّ النصّ الأصليّ يقول: (ولعله في كلّ لغات العالم!):

دِبّي كلي.. دبّي اشربي.. كِلي البنت.. وخلّي الصبي!

الضيعة..

تسأل وهي تعدّ على أصابعها الصغيرة:

- باقي تلات تيّام ليجي يوم السبت..؟

اشتاقت لوالدها ووالدتها.. يأتيان من بيروت كلّ يوم سبت لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، وتسعد الصغيرة بحضور أحبابها جميعًا في مكان واحد جميل.. كم تتوق للبقاء مع والديها في الضيعة، أمّا بيروت فلم تحبّ الحياة فيها.. البنايات الإسمنتيّة، والشوارع المغطّاة بالزفت، جعلت الطفلة تتخيّل أنّها إذا بقيت فيها فربّما تصحو يومًا، وتجد نفسها قد تحوّلت إلى طفلة من إسمنت مغطّى بالزفت!

ما يكاد الوالدان يصلان حتّى تركض لتمسك بيد والدها، وتتحوّل إلى دليل سياحيّ، تجول معه في حقول الورد الجوريّ التي زرعتها الجدّة، من أجل استخراج ماء الورد.. على الأسماك الحمراء الصغيرة في البركة تتسابق لالتقاط فتات الخبز.. على الأرنبة البيضاء التي كانت كبيرة وبطنها منفوخ، وأصبحت الآن محاطة بأرانب صغيرة تتفرّج علينا كما نتفرّج عليها.. والدة الطفلة هي أيضًا بطنها منفوخ، تُرى هل ستجد حول والدتها عشرة أطفال يتسابقون على الرضاعة كما تفعل صغار الأرانب؟!

يتمشّيان معًا يتحدّثان.. يغنّيان.. يضعها على كتفه لتقطف الثمار من الشجر.. تُحسّ أنّها أصبحت هي والوالد كائنًا واحدًا عملاقًا، ولم تعد تلك الصغيرة الضئيلة الحجم.. ويبقى أكثر ما تحبّه مراقبة العصافير تطير حرّة في السماء، وتنتقل مغرّدة بزقزقة لم يخنقها قفص، ويدرك والدها توقها لأن تكون مثل تلك العصافير الحرّة، لا تنطفئ روحها في سجون من حديد أو إسمنت.. بيروت سجن كئيب لمخلوق واحد اسمه الإنسان، يعيش فيها ظالمًا مظلومًا، بعيدًا عن روح الحياة والطبيعة.. أمّا عين عنوب فكان كلّ ما فيها يضجّ بالحياة والتنوّع والجمال..

والدتها تجلس محاطة بأخواتها وبنات عمّها وعمّاتها، تضحك من قلبها، والكلّ يحتفي بها.. تشعر بها قد استعادت نبض الحياة الذي تخدّره بيروت.. ولكن ما العمل؟ فزوجها طالب في الجامعة الأمريكيّة، وهو يحتاج إلى السكن في مكان قريب منها..

الجدّ يحتفلُ بالمناسبة بأن يختار من الجنينة أفضل الخضار والفواكه، والجدّة تُبدع في تحضير أطعمة جديرة بأن تدخل في التراث العالميّ! صحن الفتّوش أو السلطة يتربّع في وسط الطاولة.. بألوانه البديعة.. ورائحة الزعتر الأخضر، وقشر الليمون، وتلك الرائحة المميّزة للخضار التي تقطف لتوّها من المساكب.. والطعم الخرافيّ لامتزاج تلك المكوّنات التي تصل أحيانًا إلى العشرين.. البيض الطازج يُقلى بزيت الزيتون الصافي في مقلاة الفخّار على نار الحطب، ويُعصر عليه الرمّان اللفّاني.. "الغمّة" المكوّنة من رأس الخروف ومقادمه وأحشائه، تطبخ بالبهارات والأعشاب العطريّة الشهيّة التي لا يعرف سرّها إلا الجدّة..

وأحيانًا يُضحّى بأرنب أو ديك تحرص على ألاّ يُذبح أمام الصغار.. والصغار رغم علمهم بمأساة الضحيّة المسكينة لا يستطيعون مقاومة إغراء رائحة اللحم والبهارات.. كلّ شيء على المائدة كان يجمع بين مهارة جدّتي في الطبخ، والمكوّنات الطازجة التي لم تكن قد غزتها الموادّ الكيماويّة والهرمون، وذلك الطعم المميّز الذي يُضفيه حنان الجدّات.. كان العيد الحقيقيّ عند دعوة ضيوف غرباء إلى الغداء.. عندها نستمتع بما لذّ وطاب من الطعام والشراب.. وتُخرج كنوز الأطايب المخبّأة (لسترة الوجه!)، ونستفيد من قاعدة (كرمال عينو)، والتي تقضي بأنّ الطفل يجب أن يأكل من الأطايب التي تراها عينه..!

حتّى الزوّار العاديّون.. كانوا يلاقون اهتمامًا كبيرًا من الجدّة، خاصّة إذا كانوا قادمين من خارج الضيعة.. فما يكاد يجلس الضّيف حتّى تبادره بعبارتها المعهودة: "صار فينا نحطّ الأكل.. مش هيك؟" وإذا اعتذر الضيف أو تمنّع لاحقته بالسؤال مرّات ومرّات بفاصل زمنيّ لا يتعدّى الدقائق، إلى أن يستسلم أخيرًا!

كان موعد الطعام مقدّسًا، وعلى الجميع أن ينتظر بعضهم بعضًا، وإذا كان أحدهم غائبًا، استخدموا "الموبايل" لاستدعائه، وموبايلهم كان أن يصعد أحد الأطفال إلى السطح ويكوّر يديه كالبوق ويصيح: "يا (فلان).. تْعا عالبيت قوام".

الجبال والوديان كانت تتكفّل بنقل الرسالة مجّانًا!

تنتهي الزيارة، ويبدأ قلب الصغيرة بالانقباض، سيذهبان، وتعود لتعدّ على أصابعها من جديد، وتسأل متى يأتي يوم السبت؟

أمّا أن تعود إلى بيـــروت فهذا مســتحيل.. ما تكاد تســمع والدتها وهي تقول: "يالله بدّك تنزلي معنا عا بيـروت".. حتّى تنطلق هاربة لتختـبئ في أيّ مكان بعيدًا عن الأنظار.. ولا تظهرُ إلاّ بعد أن تتأكّد أنّ السـيارة قد عادت بهم إلى بيروت..

المال قليل.. ومن الحبّ ما يكفي

يعود الوالـدان إلى بيـــروت مُحمّلين بـأكيـاس الخضـــار والفواكـه والصـــابون وزجاجات الزيت والمقطّرات.. لا يشـــعران بالإحراج، فأمّ نايف هي خالة أبو سلمى، وهي تعتبره مثل واحد من أبنائها.. أمّا الشيخ نعيم، فقد كان يشعر أنّ صهره قطعة من روحه وقلبه.. في الماضي كان بـالإمكان دسّ بعض النقود للابنـة، ولكنّ الأيّام أصـبحت صـعبة، والعين بصيرة واليد قصيرة..

شـرانق الحرير لم تعد تجد سـوقًا، بعد أن انتشـر الحرير الصـناعيّ، وخسرت أمّ نايف مصدر رزق كان يدرّ عليها ليرات ذهبيّة..

الخضار والفواكه التي كان يتسابق عليها التجّار، لم تعد تلقى اهتمامًا.. أصبح التجّار يدفعون أسـعارًا مرتفعة في المنتجات الـــتي يضـفي عليها السـماد الكيماويّ رونقًا وحجمًا أكـــبر.. كـــثيرًا ما كانوا يقولون للجدّ: "حطٌ كيماوي يا شيخ بو نايف.. حطٌ.."، ولكنّه كان يؤمن أنّ الكيماويّ يخرّب الصـــحّة والعقل والضـمير، وما كان ليقتل الناس من أجل أن يعيش مع أسرته في بحبوحة..

حـــتّى الزيت لم يعد الشـــيخ قادرًا على بيعه، فالتاجر يأتي، وبعد أن يتذوّق الزيت يتأفّف قائلًا: "يا شـــيخ الزيتات محدحدين ولونهن عكر.. اشترينا من عند (فلان) زيت طعمه طيّب ولونه صافي مثل دموع العين.. إذا بدّك منشتري زيتاتك للصابون بس بتراعينا.." ويأتي من ينصـح أبو نايف:

"هذا الفلان يشتري زيتًا رخيصًا من بيـروت، ويضيف إليه كمّيّة قليلة من زيت الزيتون، ويبيعه بأسعار غالية.. اعمل مثله.."

ولكنّ الشيخ ما كان ليغشّ حتى لو دفعوا له كنوز الأرض..
الحالة أصبحت صعبة، والاغـتراب أصبح الحلّ الوحيد.. وإفريقيا فيها العديد من شبّان الضيعة، وسوف يسعدون بأن يردّوا الجميل للشيخ الذي كانوا يعتبرونه أبًا لهم جميعًا.. وكان لا بدّ للخال نايف أن يغترب..
ما كانت الطفلة لتدرك المشكلة؛ فالخضـــراوات والفواكه متوفّرة من كلّ صـــنف ولون، واللحوم تتكفّل بها الأرانب والمعلوفة والدجاجات.. والفســـاتين الـــتي طرّزتها أنامل الخالات بذوق وإتقان، كانت تشـــبه أجنحة فراشـات ملوّنة.. ولكنّها ما كانت لتهتمّ كـــثيرًا بالفسـاتين، فقد كان يشغل بالها هذا الشيء السحريّ الذي كـثيرًا ما تراه في يد والدها.. وتراه في حقائب خالها وأولاد خالتها.. شـيء يمســكون به بأيديهم، يفتحونه ويستخرجون منه سحرًا وأعاجيب.
لم تكن قد بلغت الثالثة بعد عندما بدأت المطالبة به، قالوا لها إنّها ستحصل على الكثير من هذا الاخـتراع العجيب عندما تكـبر، ولكنّها ما كانت لتنتظر.. وتحقّق حلمها عندما حصلت على (فانوسها السحريّ)، وبدأ الجميع يتطوّع لتعليمها طريقة استخدامه..
الكتاب كان هاجســها.. تجلس مشــدوهة عندما يبدأ والدها أو أحد أقاربها باســتخراج الحكايات والأشــعار، من هذا الفانوس الســحريّ.. تحمّس الجميع لفكرة تعليم الصغيرة القراءة من كتاب الصفّ الأوّل.. عادة ما تكون المعلّمة مســؤولة عن عشــرين تلميذًا.. ولكن من حظّ الصــغيرة أنّ تلميذة واحدة كانت محطّ اهتمام ورعاية عشــرين متطوّعًا!

جاء الخريف، وبدأ الأطفال يذهبون إلى المدرسة، وأصبح لدى الطفلة طموح آخر.. أن تذهب هي أيضًا.. ولكنّ المدرسة ابتدائيّة ولا تستقبل من هم في عمرها..

ثمّ حدث ما يشبه المعجزة! واحدة من الأشياء الغريبة التي ليس لها أيّ تفسير منطقيّ!..

شو بتحبّي تصيري بس تكبري؟

- بدّي روح عالمدرسي..
- بعدك زغيري..

وبعد إلحاح لا يهدأ، أخذتها الخالة إلى المدرسة، ومعها كتاب الصفّ الأوّل.. حكت لمديرة المدرسة الأجنبيّة عن إصرار الطفلة على الانتظام في المدرسة، وطلبت من الطفلة أن تقرأ لها من كرّاسة الصفّ الأوّل. وبرغم الضائقة الماليّة وغلاء قسط المدرسة، عرضت خالتي أن تدفع عن الطفلة قسطًا كاملًا، اعتذرت المديرة بلباقة، وقبلت أن تستضيفها يومًا واحدًا تُرضي فيه فضولها..

جاءت المعلّمات ليتفرّجن على الصغيرة التي تصرّ على القدوم إلى المدرسة، ومن بين الأسئلة الكثيرة التي انهالت على الصغيرة كان سؤال لإحداهنّ:

- شو بتحبّي تصيري بس تكبري؟

وببراءة السنوات الثلاث أجابت.. وكان جوابها صاعقًا للجميع!

منهنّ من ضحكت.. ومنهنّ من قطّبت مستغفرةً.. المستخدمة التي كانت تقدّم القهوة أسقطت الصينيّة من يدها برعب شديد، وبدأت تولول:

- إذا بتحكي هيك بتروحي عا جهنّم.. بتعرفي شو يعني جهنّم؟ يعني بيعذّبو فيها الكفّار..

أمّا مديرة المدرسة، فأسكتت المستخدمة، وطلبت إبقاء الطفلة معها. وبعد ذهاب الجميع، نظرت الطفلة إلى السيّدة الحنون، وشعرت بأنّها تعرفها.. ترتاح إليها.. تحس أنّها وجدتها بعد أن كانت تشعر بأنّها في عالم لا يفهمها.. لم يكن شعور المديرة مختلفًا أيضًا، أحسّت بشيء غامض يشدّها إلى تلك الطفلة.. هل هو تلاقي أرواح؟ هل كانتا قريبتين في حياة سابقة؟ هل كان ذلك القاسم المشترك بينهما في البحث عن عالم أفضل هو ما شدّ روحيهما؟ ربّما..

بعد ذهاب الجميع، نظرت إليها بعيون متفهّمة، وسألتها بعربيّتها الركيكة:

- ليش بتحبّي تصيري هيك؟

وجاء جواب الطفلة:

- إذا واحد فقير مين بيرزقه؟.. إذا مريض مين بيشفيه؟ إذا أبو حسن ضرب مرتو مين بيهديه؟.. وأنا بحبّ ساعد الناس ليكونو مبسوطين..

وكانت بداية صداقة حقيقيّة بين طفلة في الثالثة.. وسيّدة أجنبيّة تجاوزت الثلاثين..

إلى ابنتي

عندما كتب الشـاعر والد الطفلة قصـيدته الرائعة "إلى ابنـــتي" عام 1946، هل شـــعر بالمولودة تتلفّت حولها برعب من وجدت نفســـها في عالم غـــير عالمها؟ هل كانت فعلًا: "مَشـوقةٌ لصـديقٍ أو صـديقةٌ" من حياة ســـابقة؟! مَنْ يدري ماذا كان يجول في ذهنها، فالتقطه حدس الشاعر وإحساسه المرهف، وأوحى له بقصيدة "إلى ابنتي"..

إلى ابنتي

يا بُنَتي!! فتّحتِ عينيك على دنيا ضياءٍ وحنان

وأناشيد حِسان

فتطلّعْتِ كئيبًا، وبكيتِ..

وهبوك الثديَ ريّان شهيًّا، فأبيت

فلماذا يا بنتي جئت حزينة

عالمًا لا تعرفينه؟..

لا نيوبُ الدهر آذتك، ولا أعوانُ دهرك

وطيوف الهمّ لمّا تتململْ فوق صدرك..

بيتُنا جرّبتُ أن يبدُوَ في أحسن زينةْ

في بياض الياسمينة

وفؤادي كان جذلانَ لمرآك، طروبًا

لا عبوسًا أو غضوبًا..

فلماذا يابنتي جئت حزينة

عالمًا لا تعرفينه؟

أيَّ درب سلك الدمعُ إليكِ

فارتمى في مقلتيك

بكَّرَ الهمّ عليك..

أنْ تكوني، مثلما قلن، لأصحاب مشوقهْ

لصديق

أو صديقة..

أو تكوني مثلما قلتُ: "صدى نفسي الحقيقي"

أدرَكَتْ نفسي لماذا يابنتي جئتِ حزينةْ

عالمًا لا تعرفينه..

صداقة لا تعترف بالحدود!

أخـــبرتني الرئيسـة أنّ بإمكاني أن أزور المدرسـة عندما أريد.. وأردت أن أزورها كلّ يوم!.

أصـبحتُ الطفلة المدلّلة في المدرسـة.. فالرئيسـة كانت تُبقيني في مكتبها معظم الوقت.. تضـع أمامي عددًا كـــبيرًا من الكتب الجذّابة الملوّنة، والألعاب التعليميّة الرائعة.. تعلّمـــني أغاني إنكليزيّة.. تعزف لي على البيانو، وتصحبني في جولات إلى حديقة المدرسـة، حيث غُرسـت أنواعٌ من الورود والأزاهـير لم أكن قد شاهدتها من قبل.. والأهمّ أنّها لم تكن تتحدّث معي باعتباري طفلة، بل تحدّثني باعتباري صـديقة، كانت إنكليزيّة هاربة من صقيع الجزيرة الباردة، إلى دفء الشرق، وإنسانيّته، ووجدت في سـكّان عين عنوب الأسـرة المحبّة التي احتضـنتها بقلوب مفتوحة..

كانوا يقولون عنّي "خلقاني بوعيها" أو "جايي على رجليها" إشـارة إلى أنّني ربّما لم أكن في طور تعلّم، بل اسـترجاع لمعلومات وخـــبرات من حياة سـابقة! سـواء أكان التقمّص حقيقة أم لا، فالدراسـات تثبت كلّ يوم أنّ الطفل يحمل عقلًا ووعيًا أكـبر بكـثير ممّا يعتقده الكبار، ويكفي لكي تقتنع أن تُشـاهد الأطفال الآن وهم يسـتخدمون الكمبيوتر بكلّ هذه الكفاءة المدهشة التي يحسدهم عليها الكبار..

* * *

عندما حدثت الفضيحة، أصبحت حديث القاصي والداني، أو على الأقلّ هذا ما خُيّل لي!.

كنتُ جالسةً في مكتب الرئيسة عندما قلت لها فجأة:

- بدّي إرجع عالبيت.

حاولَت أن تستفسر مني عن السبب، ولكن يبدو أنّ الحاجات البيولوجيّة كانت من المواضيع التي يُعتبر التكلّم عنها أمام الغرباء عيبًا لا يُغتفر.

لم أعد أستطيع الاحتمال.. فهمست بكلمتين على استحياء شديد، ولم تساعدها لغتها العربيّة على الفهم، ظنّت أنّي أريد أن أشرب فذهبت، وعادت بكأس من الماء..

وعندما نظرت إليّ فهمت بعد فوات الأوان أنّني لم أكن أريد أن أشرب..! عدت مع المستخدمة إلى بيت جدّي، وفضيحتي مكتوبة على المريول الأبيض بأحرف لم تكن من نور! كان من الممكن أن تمرّ الأمور بسلام لو لم أحاول أن أتذاكى.. فعندما اقتربنا من البيت وتركتني المستخدمة عائدةً إلى المدرسة، ذهبتُ إلى النبعة حيث توجد بقعة من الماء، ورميت نفسي فيها.. وعدت لأقول ببراءة شديدة إنّني ذهبت إلى النبعة لأشرب، ووقعت في الماء! وأصبحت القصّة مثار تندّر ومزاح، ينتقل في القرية الصغيرة من بيت إلى آخر..

في اليوم التالي، أرسلتني الرئيسة مع إحدى المستخدمات في "جولة تثقيفيّة"، وشاهدتُ حمّامات بيضاء ناصعة شديدة النظافة، وفيها كثير من التجهيزات التي لم أكن قد عرفتها بعد. كانت المستخدمة شديدة الاعتزاز بأنّها هي المسؤولة عن كلّ هذه التكنولوجيا، وكأنّها كابتن في قمرة قيادة، ابتلاه الله بأن يشرح تعقيدات مهنته

لإنسان بدائيّ جاهل! وأفهمتني وأنا القرويّة الدرويشة، أنّ عبارة "بيت مَي" هي للفلاّحين البسطاء، وأنّني يجب أن أستخدم كالمتمدّنين أمثالها كلمة تواليت أو WC!

الراديو

كان أبو سلمى عائدًا من عين عنوب إلى بيـــروت عندما التقى بصديقه كامل، كان كامل شـــابًّا مثقّفًا واعيًا، أنشـــأ مع مجموعة من شـــباب الضـيعة جمعيّة لدراســة احتياجات ضـيعتهم من المشـاريع، وتنفيذ المستطاع منها، بعد أن فقدوا الأمل في مساعدة الدولة لهم، فقرّروا أن يتولّوا الأمر بأنفسهم..

إحدى الطرق لجمع المبالغ المطلوبة كانت عمل يانصيب، تكون الجائزة فيه مغرية جدًّا للجميع. "راديو". وفاق الإقبال على اليانصـيب كلّ التوقّعات، بعضـهم اشـترى خمس عشـرة بطاقة، وأبو توفيق اشـترى عشرين!

شـعر أبو سـلمى أنّ من واجبه باعتباره صـهرًا للضـيعة أن يشـارك في دعم الجمعيّة.. تحسّس اللـيرة الوحيدة في جيبه، بهذه اللـيرة سيضع "نصّ نعل" لحذائه، فقد أصـبحت "كلوة رجله على الأرض" وسـيركب التراموای من وسـط بيـــروت إلى بيته في عائشـة بكّار، وربّما بقي معه أيضًا ما يشتري به هديّة لابنته الصغيرة.

عندما وصل أبو سلمى إلى البيت كانت يداه متيبّستين من ثقل الفواكه والخضـار، والمونة الـــتي جلبها من الضـيعة.. وأسـفل قدمه يقطر دمًا بعد أن عاد ســـيرًا، بحذائه المثقوب، وحمله الثقيل، من العازاريّة إلى عائشـة بكّار، لأنه فضّـل أن يقدّم اللـــيرة الوحيدة في جيبه لمشـاريع في ضيعة زوجته.

جاء يوم السحب على الجائزة الثمينة، واستعدّت الضيعة للمناسبة.. كلّ بيت فيها كان يحلم بالراديو، ويتخيّل أصحابُه كيف سيتقاطر أهل الضيعة للتهنئة، والاستماع إلى هذا الجهاز العجيب.. صحيح أنّ أحد المشايخ في عاليه أفتى بأنّه حرام، ووعظ الناس قائلًا: "لا تستمعوا إلى ما زخرف الشيطان"، ولكنّ قليلين من اهتمّوا لكلام الشيخ، فقد وجدوا صوت زكيّة حمدان أكثر إغراء من صوت الشيخ!.

أبو توفيق كان متأكّدًا من الفوز، فقد اشترى عشرين بطاقة.. وأمّ توفيق أعطت خمس ليرات للمغربيّ ليعمل لها سحرًا فيكون الراديو من نصيبهم.. منذ الصباح وأمّ توفيق تنظّف بيتها، وترتّبه ليصبح لائقًا باستقبال الراديو.. ولم تنس أيضًا أن تدعك وجهها بالبطاطا المهروسة واللبن لتنعّم بشرتها، فتصبح لائقة بتلقّي قبلات المهنئات!.

اجتمع رجال الضيعة في القهوة على العين الزغيرة.. وتجمّعت النساء في البيوت القريبة من موقع الحدث!.

كانت العيون شاخصة إلى الراديو الذي أخرجوه من كرتونته، ووضعوه أمام الجميع، ليستمتعوا بمنظره الجليل.. وكانت القلوب تدقّ بعنف مع اقتراب ساعة الصفر!.

سحبوا اسم الفائز: سلمى عبيد.

وانطلق الصراخ والاحتجاج بقيادة أبو توفيق:

- يا خيّي ما في بيت عبيد بعين عنوب.. شو عم بتقولوا حفيدة أبو نايف نعيم قائدبيه؟ بِهْ.. بِهْ.. بنت السوري الحوراني؟

الحوارنة بيفهموا بالراديو؟ ليش عندهن كهربا؟ على شـو بدو يشـغلّو بحوران؟ على طبابيع الجلّة؟ ما منقبل، هذا راديو الضـيعة لازم يظلّ بالضيعة..

كانت كلمة حوارنة تُطلق على القادمين من منطقة حوران في جنوب سورية، سواء أكانوا من درعا وسهل حوران، أم من محافظة السويداء في جبل حوران (جبل العرب).. ولأنّ المنطقة تعرّضت لسنوات قحط متتالية، دفعت بالكثيرين للذهاب إلى لبنان، والعيش في حزام الفقر الذي يزنّر بيروت، فقد كانت كلمة حوارنة تحمل عنصريّة واستخفافًا.. والذين كانوا يعيّرون "الحوارنة" بفقرهم، تناسوا أنّ نسبة كبيرة من سكّان السويداء، هم نخبة من المناضلين والأحرار اللبنانيّين الذين قاوموا ظلم الأتراك.. ورفضوا قبول الزعامات التقليديّة المتسلّطة.. وذهبوا إلى جبل يرفع رأسه بعنفوان، رافضًا أن يكون مستعبدًا لغريب أو عميل.. ولأنّ الجبل يعتمد على زراعات بعليّة.. فقد كان الإله "بعل" يسخو بالمطر أحيانًا فتصبح حوران سلّة غذاء تصل إلى روما، ويبخل أحيانًا أخرى، فيضطرّ سكّان المنطقة إلى البحث عن مصدر رزق آخر.. وتنقلب الأدوار، فيصبح من كانوا يهربون من الفقر والجوع إلى حوران هم الذين يعيّرون الحوارنة بفقرهم وجوعهم!.

أبو توفيق لم يكن من عين عنوب، ويُقال إنّ أهالي ضيعته البعيدة طردوه لقلّة أمانته وسوء سلوكه، وكان أهل عين عنوب يتحاشونه، ويشكّون بأنّه هو وراء السرقات والزعرنات التي لم تكن معروفة في ضيعتهم قبل "تشريفه"! هذه فرصته الآن ليثبت أنّه هو اللبنانيّ الأصيل الحريص على ألا تُهدر كرامة ضيعته بالتفريط براديو الضيعة للحوارنة!.

طالب أبو توفيق بإعادة السحب.. رفض معظم الحضور، ولكنّ الرافضين كانوا من أصحاب الأصوات الخافتة، والزعران كانوا صاخبين، ومستعدّين لخوض معركة "كرامة" من أجل راديو الضيعة!.
لم يكن أبو توفيق مهتمًّا بالضيعة، بل على العكس كان يكره جفاءهم وتحاشيهم واحتقارهم له.. ولكن لو ربح الراديو لتغيّر الوضع.. سيجلس في القهوة على العين، وسوف يتسابق الجميع للجلوس على طاولته ليخبرهم بما سمعه من أخبار من محطّة "الشرق الأدنى" في لندن..
وضيوفه سيملؤون الدار، وهم يستمعون إلى عمر الزعنّي ينشد:
خمّنتك شبّ يا مدموزيل.. باردون باردون..
وسيضحك الجميع.. ويدور بينهم نافشًا ريشه مثل طاووس،فهو صاحب الراديو..
سيذهب أولاده إلى المدرسة، وقد حفظوا أغاني من الراديو، وستغنّي ابنته أمام رفيقاتها:

حوّل يا غنّام حوّل — بات الليلة هين
بالله يا غنّام قل لي — شايف ولفي فين..

سينتقل من منبوذ محتقر إلى "صاحب راديو"!.

أبو سلمى كان قد نسي أمر البطاقة، فقد اشتراها من أجل الضيعة التي كانت تنزف شبابًا يذهبون إلى إفريقيا، ولا يعودون.. ومزارعين يكدحون ليل نهار ليجدوا آفة قد قضت على مزروعاتهم، وتركتهم دون مورد.. أبو سلمى كان يقيم في شقّة مشتركة مع اثنين من زملائه من السويداء وعائلاتهم، شقّة من ثلاث غرف، توزّعها طلاّب الجامعة الأميركيّة الثلاثة.. وكان الإيجار الذي يدفعه كلّ منهم أربعين ليرة لبنانيّة، ويبقى لمصروف كلّ أسرة أربعون ليرة!.

في الماضي كانت المواسم جيّدة، فاستطاع أبو نايف أن يعلّم أولاده جميعًا في مدرسة الإنكليز، ويدفع أقساطهم بالليرات الإنكليزيّة الذهبيّة، ولكنّ الصحّة لم تعد كما كانت، والأرض حبيبة متطلّبة.. الشيخ أبو نايف كان يحسب حساب أمّ سلمى ابنته المفضّلة، وبركة البيت قبل الجميع، فكانت كلّ مؤونة البيت تأتي من الضيعة، وكلّما جاء للزيارة كانت أمّ سلمى تجد نقودًا قد دسّها صامتا.. أصبح ينظر إلى ابنته بعينين متفهّمتين.. متعاطفتين.. ولكن ما باليد حيلة..

نعود إلى قهوة الضيعة! فبعد أخذ وردّ، وخوفًا من تطوّر الأمر إلى مشاجرة، وافق أعضاء الجمعيّة مُكرَهين على إعادة السحب.. وأن تكون كلّ الإجراءات من أوّلها إلى آخرها بإشراف مباشر من أبو توفيق.. وخرج الاسم للمرّة الثانية:

سلمى عبيد!

هذه المرّة كان لا بدّ من التضحية براديو الضيعة للحوارنة!

يبدو أنّ سحر الحورانيّة الصغيرة، كان أقوى من سحر "المغربيّ"!.

كان الشـيخ أبو نايف قد عاد لتوّه من جنينة عين الطاحون.. كان تعبًا ومكدودًا.. سمع أصواتًا تهزج من بعيد:

جينا وجينا وجيناكن.. جبنا "الراديو" وجيناكن..

كان شـباب الجمعيّة قد حملوا الراديو، وذهبوا لتسـليمه إلى أبو نايف ليعطيه لصـهره.. واسـتقرّ الراديو في شـقّة عائشـة بكّار إلى أن أنهى أبو سلمى دراسته.. وعندما عاد ترك راديو الضيعة للضيعة، وبقي الراديو العتيد ما يزيد على نصـف قرن يتربّع على الطاولة الـتي فصّـلوها خصيصًا من أجله..

أبو توفيق وجد أنّ السـرقات الصـغيرة لم تعد تناسـب طموحاته ومواهبه، فانتقل إلى بيروت وعمل في السـياسـة، ولم يعد يجد الوقت للاسـتماع إلى الراديو.. فقد أصـبح هو الذي يتكلّم على التلفزيون.. وفي الراديو!.

طقم كنبايات.. ودمعة في زاوية العين

عاد الشيخ يومًا إلى البيت، وشاهد منظرًا غريبًا، كنبايات بالغة الفخامة، ومرآة عملاقة يحيط بها خشب محفور مطعّم بالصدف، وسجّادة تبريزيّة تليق بملك.. استغرب ما رآه.. علم أنّه لا بدّ أنّ ثمن هذه المشتريات قد استنفد كلّ ما كان في الصندوق من ليرات ذهبيّة مخبّأة لظروف طارئة قد تأتي بها الأيّام.. كان رجلًا راقيًا رزينًا هادئًا، وكان واثقًا من ذكاء زوجته واتّزانها، وبُعدها عن المظاهر الكاذبة، وعن البهرجة، ولكنّ ما فعلته أمّ نايف لم يكن منطقيًّا أو مفهومًا.. وقبل أن يتوجّه إليها باللّوم، لمح في زاوية عينها السوداوين دمعة تجاهد لئلا تتدحرج على الخدّ.. لا بدّ أن لطقم الكنبايات هذا سرًّا، لن يلحّ عليها ليعرف السرّ.. سيدعها لتخبره به عندما تكون مستعدّة لذلك!.

لطقم الكنبايات سرّ، لا تحكيه أمّ نايف لأحد، برغم كثرة التساؤلات الفضوليّة من أهل الضيعة.. كانوا يتساءلون إذا كانت قد اشترته اعتقادًا منها أنّ الأثرياء كثيرًا ما يخبّئون ذهبهم في داخل أطقم الكنبايات.. أم أنّها وجدت سعره مغريًا، فاشترته لتعيد بيعه بما يستحقّه من ثمن.. وكان الخيال يشطح ببعضهم فيتساءلون إذا كان آل قائدبيه الذين يعودون بنسبهم إلى الأمراء اللمعيّين سوف يستعيدون لقب الإمارة وأملاكهم الكثيرة التي صادرها الأتراك، بعد أن وقفوا مع الشعب في نضاله للتحرّر، ولم يرتضوا بأن يكونوا جباة وعسكرًا للباب العالي.. وهل هذا الطقم هو أوّل الغيث بعد أن تحرّر لبنان من الاحتلال التركيّ!.

كان طقم الكنبايات الفاخر من الخشب الثمين المحفور بذوق وفنّ، والمطعّم بقطع من الصدف المقدسيّ مكوّنًا من عدّة قطع كبيرة وصغيرة، وكان أجملها كنبة مفردة مشغولة بدقّة وفخامة، تبدو كأنّها عرش صمّم لجلوس ملك..

الغرفة تظلّ مقفلة، ولا تفتح إلا لضيوف مهمّين، فالاستقبال كان على السطيحة صيفًا، أمّا في الشتاء، فالغرفة الكبيرة التي تستخدم للنوم في الليل، تتحوّل في النهار إلى غرفة جلوس، وكانت غرفة جلوس جميلة تمنح الجالس إحساس الربيع في كلّ فصول العام، فالمقاعد مغطّاة بقماش أبدع الفنّان الذي صمّم رسومه في بثّ روح الحياة، والجمال في زهور كبيرة من عناقيد الليلك، وأوراق مشرقة بهيجة بلون العشب النديّ.

لسبب ما كانت أمّ نايف تفتح باب الغرفة لطفلٍ صغير، وتصرّ عليه أن يجلس على الكنبة الكبيرة.. أمّ نايف كانت ترى أنّ هذه الكنبة لم تكن من حقّ أحد آخر أكثر منه..

* * *

عندما اشترت أمّ نايف الطقم الثمين كانت تنظر إليه، فتنطلق من أعماق صدرها تنهيدة حارقة.. تُرى أين هي الآن صاحبة القصر الذي كان أهل عاليه يتابعون بناءه بإعجاب كبير، فصاحب القصر كان فاحش الثراء، وأراد لقصره أن يكون فريدًا في ضخامته وفخامته وذوقه، وبعد الانتهاء من بنائه استحضر له أجمل الأثاث وأثمنه، لتزيين جنباته.

توفي الثريّ تاركًا الثروة الخياليّة لابنته الوحيدة.. وأين هي الآن؟ لا أحد يدري بالضبط، ولكنّ أمّ نايف سمعت أنّها تعيش في خيمة في صحراء مجدبة في السعوديّة مع أولادها، لا يجدون كسرة خبز، أو قطرة ماء.. معهم أيضًا الأمراء الأرسلانيّون الذين تركوا الحياة المرفّهة، ليناضلوا من أجل تحرير الوطن العربيّ من الاستعمار الفرنسيّ..

تتخيّلها وهي تُطعم أولادها شوكًا وجرادًا، لكي لا يموتوا جوعًا، كم قيل لها أن تترك زوجها وتعود إلى عاليه، لتعيش مرفّهة في أملاكها الكثيرة، لكنّها رفضت أن تتخلّى عنه في محنته، وأن تُبعد الأطفال عن أبيهم..

بيعت أملاكها الكثيرة من أجل تمويل الثورة، لتبقى بندقية النضال غير مرتهنة لأحد.. أرادت أن تُبقي على القصر، ولكنّه بيع أيضًا، وبيعت محتوياته الثمينة.. هل وصل ثمنه إليهم كاملًا؟ ومتى كان اللصوص والسماسرة يتركون لأصحاب الحقّ إلا النزر اليسير؟..

أمّ نايف اشترت طقم الكنبايات ذكرى من ذلك القصر.. فقد كان القصر لأختها من أمّها والدة الطفل الذي كانت تصرّ على أن يجلس على إحدى قطع الطقم.. هذا الطفل الذي سيكبر ليصبح صهرها.

* * *

عندما بيع القصر، استعاد سكّان عاليه قصّة الثريّ الذي يقال إنّه كان أكبر مالك أراض في لبنان.. وقال بعضهم إنّه كان بالإمكان السير في أرضه من بيصور إلى صوفر..

منصور ناصر عبيد.. والده كان ثريًّا ويملك أراضي شاسعة، كان يشتري الأراضي ولا يبيعها مهما عُرِض عليه من إغراءات. ترك لمنصور أرزاقًا خياليّة، وخبرة في الشراء، ورغبة في امتلاك المزيد والمزيد من الأرض..

قال بعضـــهم عن منصـــور إنّه طمّاع جشـــع مثل والده، لا يملأ عينه ســـوى الـــــتراب.. أمّا هو فقد كان يقول إنّ الأرض كالعرض، يجب أن تبقى حرّة، ولا تعرض للبيع مثل جارية في ســـوق النخاســـة. كان يكرّر القول إنّ اللبنـانيّين يبيعون أراضـــيهم، ويهـدونهـا، دون أن يُـدركوا أنّ الطامعين في أرض لبنان كـثيرون، وهو بشرائها يحميها من الانتقال إلى أيد مشبوهة..

هل كان طمّاعًا وبيّاع كلام.. أم كان واعيًا بعيد النظر.. لا أحد يسـتطيع أن يجزم.. ولكنه مع اسـتغراقه في الشـراء، ضـاع شـبابه، وعندما تزوّج كان قد أصـبح على أبواب الشـيخوخة، ولم ينجب سـوى ابنة واحدة، تركها طفلة صغيرة مع صندوق مليء بصكوك الشراء، أوراق لا تعنـــي شـــيئًا للطفلة الصـــغيرة التي أرغموا أمّها على الزواج من جديد، بعد وفاة الزوج العجوز، تاركة الطفلة دون أمّ أو أب، ومعها صـندوق مليء بالأوراق، يجعلها أكـــبر مالكة أراض في لبنان.. ولكن هل كانت سـتهتّم بهذه الأوراق أو تلك الملكيّة؟ كانت طفلة تريد أبًا تختـــبئ تحت عباءته عندما يفزعها صوت الرعد.. تريد أُمًّا تقبّلها.. تمسح على جبينها.. تغنّي لها أغنية قبل النوم تحمل ذبذبات الروح.. تحكي لها حكاية حـــتى لو كانت حكاية "إبريق الزيت"!.

الطفلة كـــبرت، وتزوّجت، وأنجبت ووجدت الحبّ، ولكنّ الصـندوق أصبح في مهبّ الريح، وتطايرت الأوراق في الجهات الأربع..

هل من أحد يَلوم أمّ نايف إذا اشترت تذكارًا من تلك الـــثروة الخرافيّة التي كانت لأختها من أمّها، ثم ضاعت بين حرب ولصّ وسمسار..؟

الضيف الصغير

من الضـيوف الذين كانت العائلة تسـتقبلهم بحبّ، ولهفة، وقلوب مفتوحة، طفل صـغير، نحيل، مهذّب، لطيف، هادئ الطباع.. كان كتلة من المشـاعر والحسّ المرهف، وحكم عليه الزمن أن يبتعد عن أهله، ويعيش في بلد آخر وحيدًا مسـكونًا بذكراهم.. وجد الطفل في أمّ نايف الأمّ التي يفتقدها، ووجد في الشيخ نعيم صدى لروحه الشفّافة الخيّرة.. والأولاد كانوا يعتـبرون الطفل واحدًا منهم، ويترقّبون حضوره الجميل في عطلات نهاية الأسبوع..

كيف لطفل صـغير أن يعيش بعيدًا عن حضـن أمّه التي يقدّسـها، ولا يطيق الابتعاد عنها لحظة واحدة.. وكيف للأمّ الـتي تحمل قلبًا حنونًا مفعمًا بالمشـاعر أن تدع ابنها يسـافر وحيدًا من سـورية إلى لبنان، وتتحمّل غيابه عنها؟ ولكن كان لابدّ للاثنين أن يتحمّلا هذا الفراق، من أجل أن ينتظم هذا الطفل في الدراسـة، من خلال منح للمتفوّقين من أبناء المجاهدين.

كان من الداعمين لهذه المنح كبار المثقّفين في لبنان، ومنهم الشـيخ سـليمان أبو عزّ الدين من العبادية.. وقد حافظ عليها الطفل بجدّه واجتهاده، وبمواهبه الأدبيّة التي اكتشفها أساتذته ومنهم الأديب مارون عبّود الذي كتب عنه الأديب سلامة عبيد قصّة "المضـخة"، والشيخ العلاّمة هاني باز الذي ورد ذكره في قصّة "هدية أم"..

كـــبر الطفل وأصـبح شـابًا، وبقي يحرص على زيارة الضـيعة.. وفي يوم جاءت إحدى بنات أبو نايف بصـوص صـغير هديّة من جارتها.. وتجمّع حوله الجميع.. ولكنّ شـــابًا صـــغيرًا ابتعد وجلس بمفرده وبيده ورقة وقلم، وبعد ســاعة زمن عاد ليقرأ لهم القصــيدة، وهي أوّل قصــيدة معروفة للشاعر، وقد تمّ تناقلها شفويًا:

بهيّة مشــوار مخصــوص   راحت عند العـــصـــريّة
جابت معها شقفة صوص   من عـنـد الجـارة هـديّـة
صــوص زغـــيّر يا نونو   قـدّو قـد الـبـوبـانـة
بعـدا القشــرة عجفونو   وعينـه اليســرى ذبلانـة
ورجله ان مشـــي بتخونو   وجلـدة رأســـه جربـانـة
ولـولا مـا الـربّ يصـــونـو   فطس قبل العـــصـــريّة
محمّـد شـــافو عجيبـة   بـين حـواض الـزرّيـعـة
نـادالـو "يـا حـبيبـــي.."   زوكـرلـو وقـلّـو "تـيـعـا"
حّطو بخيـال الســيبـة   بهالســـاحـة الوســيعـة
ومـن الـبركـة الـقـريـبـة   جـاب لو جنطـاس مويّـة
جميلـة جـايي من بعيـد   تـركـض مـتـل الـطـيّـارة
بْإيـدا قفص بعـدو جـديـد   شـــغــل ولاد الأمــارة
مزوزق قضـــبـانو حـديـد   بـيـلـمـع مـتـل الســـنـارة
قـالـتـلـو لمـحـمّـد حـيـد   صـــوصــك بـدّو علّيـة!
الصوص بنقد البرغـــلات   بيـطرطق مـتـل مترليـوز
يـالله خـوذ ويـلـلا هـات   أكـل أكـتر مـا بـيـعـوز
هـــلّي بيـاكـل هـالأكلات   بـدّو قـنـيـنـة كـازوز
ولـو مـا يعطوه كربونـات   عجهنّم صـــفّـا النيّـة!

العلقة وين المنامة؟ البسّة إلها عندو ثار
شو رايك يا "سلامة" "بدو بأوتيل البحّار
أوضة وتخت وخدّامة وكراسي وناموسيّة!"
بهيّة قالت: "مش حق يطلع برّات عين عنوب
برأيي لازم يتعلّق بالحبل وهاذا المطلوب
ومهما البسّة تتسلّق بيطلع شغلا بالمقلوب
وبدّو حرس سنكي طق تحريّة وعسكريّة!"
جميلة قالت: "يا ناس ما بدها نزلة وطلعة
صوص ودوّخ أكبرراس كيف ان جبنا شي شلعة؟
لا لوكاندة ولا حرّاس عنّا وجاق متل القلعة
وحديده أحسن متراس وأفضل ملجا بيتهيّا!"
جابت لو شرشف مقصور وتالي فوطة من خيّا
ومراية ومشط وبعكور وتخت وفرشة ملوكيّة

كبر الشابّ، وأدخل إلى المشرق العربيّ أنماطًا من الشعر لم تكن معروفة إلا في شعر المهجر، شعر التفعيلة كان أحدها..

في عام 1940.. كان في التاسعة عشرة عندما كتب مجموعة قصائد رائعة بأنماط شعريّة متنوّعة في أسلوبها وموسيقاها..

في عام 1943.. كتب قصيدة "يا بلادي" التي وصفها الأستاذ الدكتور رضوان قضماني بأنّها "ثورة في التجديد إذا ما قورنت بأشعار عصرها، سواء في المضمون، أو في الأسلوب".

تمرّد على القوالب النمطيّة، من خلال قصـــيدته الرائعة "من دمانا" التي كتبها عام 1945 عندما قصـفت طائرات الفرنسـيّين مبنى البرلمان في دمشق.

ثمّ قصـــيدة "إلى ابنتـــــي" التي كتبها عـام 1946، ونشـــرها في مجلة "الفيثارة" في آذار 1947.

كتبت نازك الملائكة، وكتب بدر شـــاكر الســـيّاب أوّل قصـــائدهم من شعر التفعيلة في الأعوام 1947 و1948، بعد سلامة عبيد.

ليلة الوداع

انتهت السنوات الأربع في لبنان من بداية عام 1947 وحتّى خريف عام 1951، وبدلًا من أن يحصل طالب الجامعة الأمريكيّة على الشهادة الجامعيّة الأولى وحدها، نجح في الحصول على الماجستير بدرجة امتياز، مستفيدًا من نظام الساعات المعتمدة، والدورات الصيفيّة، فعرضت عليه الجامعة أن يأخذ منحة للدكتوراه، ويدرّس في الجامعة.. ولكن ما كان سلامة عبيد ليتخلّى عن بلده وهو بأمس الحاجة إلى أبنائه..

* * *

كانت الليلة خريفيّة عاصفة، ولكنّ الأصوات العالية في بيت الجدّ طغت على صوت العاصفة.. السهرات كانت في العادة فرحة مرحة.. فما الذي حصل حتّى يتكلّم الجميع بكلّ هذا الغضب والألم والدموع؟ تكلّموا جميعًا.. بعضهم بحزن.. بعضهم بغضب.. وبعضهم بمحاولة إقناع.. كانت الطفلة ذات السنوات الخمس تدفن رأسها تحت اللحاف، متظاهرة بالنوم، وهي تتابع ما يجري.. شاهدت جَدًّا حزينًا واجمًا، في عيونه دموع، تحوّل في لحظات إلى شيخ مكسور هرم..

عندما جاءهم الأستاذ خاطبًا، لم يتحمّلوا فكرة أن تذهب ابنتهم إلى بلد بعيد، ولكن عندما علموا أنّ هناك جهودًا لتأمين منحة له في الجامعة الأمريكيّة، وتوقّعوا أن تُغريه حياة الرفاهية في لبنان، وافقوا آملين أن تبقى ابنتهم قريبة منهم..

الجدّة كانت غاضبة، وصوتها يعلو بطريقة لم نعهدها من قبل..

- بتتـرك منحة الدكتوراه، والمال، والعلم، والجاه، وبتـروح عا حوران؟ مش إنت تعلّمت بلبنان؟ مش إمك لبنانيّة؟ مش بيّك خلق ودرس بلبنان؟ مش جدّك حســين كان لبناني وراح على الســويدا لمّن الأتراك جرّبوا يقتلوه؟ فكّر بحالك.. بمسـتقبلك.. بأمّون يلّي بدّا تعيش بعيدة عن أهلها..

وما تكاد الجدّة تنهي كلماتها، حتّى تبدأ إحدى الخالات بالبكاء..

كانوا جميعًا يحاولون إقناعه بأن يقبل عرض الجامعة.. وهو يردّ عليهم بتهذيب ولكن بحزم..

سمعت اسمي ينطلق من حنجرة الجدّة..

- فكّرت بسلمى؟ عمرها خمس سنين، وبفضل رئيسة المدرسة صارت تقرا وتكتب إنكلــيزي وعربي.. بالسويدا بتلاقــي هيك مدرسة وهيك رئيسة؟

- نحنا عشــنا بالصحرا، ومنشــان الوطن أكلنا شــوك وجَراد، جعنا وعطشنا وتشرّدنا.. أكيد سلمى بدّا تتعب بالأوّل بسّ لازم تتحمّل.. فــي اليوم التالي، يذهب الأستاذ ليشكر رئيسة المدرسة على عنايتها بابنته، ويجد أمامه معركة أخرى.. امتدّ النقاش بالإنكليزيّة ســاعات.. شــرحت له مدى حاجة الصــغيرة لمن يفهمها، ويهتمّ بها.. ثمّ قدّمت له اقتراحًا أن تبقى سلمى في لبنان، في بيت جدّها أو في بيتها، وهي مستعدّة للتكفّل بكلّ المصاريف.

ولكنّ الحورانيّة كان يجب أن تعود إلى جبل حوران.

وبعد أيّام، ركبتِ الســيّارة مع والديها وأختها الصــغيرة في طريقهم إلى السويداء..

السويداء.. حجارة في حداد!

- دَمْ بهريكي..

كنتُ قد فتحت الباب الخارجيّ بحذر، ووقفت أنظر حولي بخوف وتوجّس..

سماءٌ رصاصيّةٌ ثقيلة..

شجرة تين شبحيّة عارية حتّى من ورقة التين..

حجارة متّشحة بالسواد، وكأنّها في حداد على أنّ الله قد قذف بها إلى هذا المكان!

توسّط المشهد طفلة أكبر منّي بقليل، كان يمكن لثوبها الحريريّ الأحمر في غير ذلك الزمان والمكان أن يكسر تلك الرتابة الكئيبة، ولكنّه بدا لي حينها مثل بقعة دم طازجة لزجة..

جاء الصوت ليعزّز الصورة..

- دَمْ بهريكي..

أغلقتُ الباب وصوتها الحادّ مثل صرير باب صدئ يُلاحقني:

- ورصاص!

* * *

بدأ الكابوس منذ أمس، كانت السيّارة قد توقّفت فجأة، واستيقظتُ من نوم مرهق قلق، وشاهدتهم..

تمامًا كما كانت العجائز تصفهم.. شياطين ضخمة مرعبة، تلفّها سحب غبار داكن تُظهر أجزاء منهم، وتترك الباقي لخيال يستحضر كلّ حكايات الرعب التي سمعناها عن جهنّم.

تسـمّرت عيناي عند القرون والذيول، فهي العلامة الفارقة للشـياطين في قصص العجائز..

بدت السـيّارة محاصـرة بهذه الشـياطين الهائجة التي كانت تلصـق وجوهها المرعبة بزجاج نافذة السيّارة، وعلى بعد سنتمترات من وجهي، ثمّ تنطلق تاركة النافذة لشـياطين أخرى.. خلف الشـياطين العملاقة شـاهدت أطفالًا يحملون صـفائح صـدئة، يجمعون فيها ما تتركه تلك الشياطين وراءها من قاذورات.

لا بدّ أنّنـــي ميتة، وأنّ الله وجدني كافرة، فأرسـلني إلى جهنّم لأعاني التعذيب على يد تلك الشـياطين.. تذكّرت عندما كنت في الثالثة من عمري وسـألوني ماذا أحبّ أن أصبح.. وما إن أجبت حتّـى صاحت بي إحداهنّ: "إذا قلتِ هيك الله بياخذك على جهنّم".. وها قد حصل.. ربّما سـأحمل صـفيحة صـدئة مثل هؤلاء الأطفال، وأجمع القاذورات بيديّ العاريتين، وإذا رفضـت، قامت تلك الوحوش بالتهامي قطعة قطعة، وبـدلًا من أن أموت تتجمّع قطعي، وأعود للعـذاب من جـديـد، ألا يقولون إنّ عذاب جهنّم لا ينتهي؟

ازداد رعبي، وتحوّل جسـمي كلّه إلى حنجرة عملاقة صـاحت بكلّ ما في كيانها من قوّة:

- واااااااااواااااااااا

انتقلت العدوى إلى أختـــي الصـغرى الـــتي اسـتيقظت على صـراخي المجنون، كنت أصرخ وأنا أعرف لماذا، ولكنّ أختي ذات العامين، بدأت تصرخ هي الأخرى، دون أن تدري لماذا.

واستمرّ الصراخ والبكاء حتّى استنفدنا قوانا، وغفونا من الرعب والتعب.. إلى أن كان اليوم التالي.. عندما شاهدت نجوى بثوبها الأحمر للمرّة الأولى، وتلقّيت بسوء تفاهم بالغ، شتيمتها الدمويّة التي لم تكن سوى تحيّة مودّة، من طفلة تبحث عن رفيقة لعب، لم أدرك حينها أنّ أصول اللياقة بين الأطفال تقضي بأن أردّ الشتيمة بأحسن منها!.

بيتنا في السويداء

دخلتُ إلى البيت أريد أن أشـــتكي، فوجدت الدموع تنهمر من عيني أمّي بغزارة، كانت تبكي شـــوقًا إلى أهلها، وحزنًا على حلمها الذي تبدّد بأن تبقى في بيـــروت، وتتمكّن من دراسة الطبّ، وتفتح عيادةً، وتخصّص يومين في الأسبوع مجّانًا للمحتاجين..

وكانت تبكي من هذا المنظر الذي تشـــاهده حولها.. الشـــقّة مكوّنة من مضـافة كـــبيرة ذات سـقف عالٍ، ثم درج يقود إلى شـبه سـقيفة من غرفتين.. غرفة صـــغيرة هي للنوم والجلوس والطعام.. وأخرى أصـــغر ليس فيها ما يدلّ على وظيفتها.. عندما جاءت القريبة التي اختارت لنا الشقّة، سألتها الوالدة عن المطبخ، فقالت:

- هون محل ما إنتِ واقفة..
- وين الحنفيّات؟
- حنفيّات شو يختي؟ هون مش قصر المحافظ..
- وين المجلى؟
- سـلامة نظرك يختـــي.. مش شـايفة القدويح (بلا معنـــى) بالأرض؟
- طيّب كيف بدّي إجلي؟

قرفصت بالقرب من (القدويح) وقالت:

- هيك يختي بتقربزي، والميّ بتشرشر بالقدويح..
- طيّب وين التواليت؟ يعني أجلّك الله الششمي.. بيت الميّ.
- ولو يختي قدّامك.. مش شايفة القدويح الثاني (بلا معنى).
- شايفة حيطان من غير باب.

- يختـــي سلامة مفهوميّتك، بتدقّي مسمار هون ومسمار هون وبتعلّقي كيس جنفيص أو تالي شرشف..

وعادت الشوفانية لتسأل:

- طيّب وين الحمّام.. يعني إذا الواحد بدّو يتحمم؟
- يختي.. أني بدّي قول لك وين تتحمّمي؟ البيت سَدَحْ مَدَحْ على حسابك، وين ما بدّك تحمّمي..

انتهى تفحّص المطبخ الذي لم يكن فيه سـوى طاقة صـغيرة قريبة من الســقف.. وثقب في الأرض للجلي، وآخر أكـــبر قليلًا يحيط به ثلاثة جدران متقاربة..

بحثت أمّ سلمى عن مجلى.. عن غلقات.. عن صنابير مياه.. عن رفوف.. لا شـيء سـوى سـطل من الماء كانت قد أحضـرته الجارة، وأخبرتها أنّ بإمكانها أن تطلب منها ســطل ماء آخر إذا احتاجت.. والأفضــل ألاّ تحتاج!

ذهبتْ إلى الغرفة الثانية لتجد شـبّاكًا صـغيرًا، وبابًا ينفتح مباشـرة إلى الخارج.. كان الباب قديمًا وأخشـابه متباعدة، وتكاد الفأرة تمرّ من بين شقوقه!.

تساءلت الشـوفانيّة عمّا يجعل الناس في هذه البلدة ينحشـرون جميعًا في زاوية من زوايا البيت، بينما يخصّــص للضــيوف الجزء الأكـــبر والأجمل.. ولماذا الاســتخفاف بربّة البيت، فالمطبخ لم يكن يحوي إلاّ ثقبًا من أجل تصــريف ماء الجلي، بينما المرأة تجلس القرفصــاء لتتمّ مهمّتها..

قالت الشـــوفانيّة في ســـرّها: من الغد ســـأبدأ البحث عن بيت آخر، وستساعدني في ذلك خالتي أمّ ملحم..

* * *

بعد ســـنتين، كانت زوجة الأســـتاذ لا تزال في البيت نفســـه، وعندما ودّعت الجـــيران بعد أن جاء نقل الأستاذ تعسّفيًا إلى حمص، انسابت دموع غزيرة صـــادقة من عيون الجميع.. زوجة الأســـتاذ تعرّفت إلى الجـيران، وأحبّت حنان أمّ حسين وإخلاصها، فهـي الـتي ساعدتها على التعرّف إلى طريقة الحياة في هذا البلد.. والصـغيرة أحبّت جارتها نجوى التي عرّفتها بالموطن الجديد، مزوّدةً إيّاها بنصائح قيّمة، ومُدافعة عنها بشـــراســـة في البيت وفي المدرســـة.. وآمنت الأمّ والابنة أنّ الجار قبل الدار، وعندما عادوا من حمص، ذهبوا يســـألون إذا كانت الشـــقّة لا تزال شاغرة، ليعودوا إليها!

ضيفة بشارب وطربوش

جاء الجيران والأهل للسلام علينا.. وجاءت إحدى الجارات مع بناتها.. بدت وسيمة ووقورة، ولكنّ شكلها بدا لي مضحكًا بطربوشها الأحمر.. كنت أرى في لبنان بعض الرجال يلبسون الطربوش الذي يبدو مكمّلًا لشوارب معقوفة. كانت السيّدة تمتلك شاربًا ولكنّه لم يكن معقوفًا! جلسن في الغرفة الوحيدة الصغيرة المتعدّدة الاستعمالات، فالمضافة كانت في معظم الأحيان للضيوف من الرجال الغرباء.. البنات المراهقات بدأن يتهامسن ويضحكن كلّما أدارت الوالدة ظهرها لإحضار الضيافة:

- بيلبق المقزمط لهالعساقيل..
- اسكتي إسّا بتسمعك بنتها..
- إذا سمعت شو بدّو يفهمها.. مش شايفتها غُجّي!.

ما إن ذهبن حتى ركضت أستفسر من نجوى عن معنى هذه العبارات:

- شو يعني "بيفلق المقلعط لهلمعاقيل"؟

ردّت باستغراب:

- شو؟
- بيعلق المزلعط لهلمعاطيل؟

أرادت أن تستفسر من جديد، ولكنّها كانت ذكيّة وفهمتها، وقالت مصحّحة:

- بيلبق المقزمط لهالعساقيل؟ المقزمط هُوّي الفستان القصير، والعساقيل أغصان العنب الناشفة ويللي لونها بنّي..

يبدو أنّ ثوب والدتي الذي كان يصـــل إلى ما تحت الركبة بقليل، بدلًا من أن يصل إلى الأرض، مع سيقانها التي تفتقر للشحم واللحم الأبيض أوحى لهنّ بهذا التشبيه البليغ.

- طيّب شو يعني "غُجّي"؟
- يعني غشيمة مثلك!

قالتها وهي تضحك بودّ ومرح..

استمرأتُ دور "الغجّي"، فدور الساذجة كان يُتيح لي أن أتعرّف إلى هذا الجوّ الجديد بشكل أفضل.. ونجوى كانت قاموسي الثمين الذي يشرح لي معاني الكلمات الغامضة!.

أصـبحت نجوى دليلي السـياحيّ في هذا الموطن الجديد، علّمتني لعبة الخوط بطريقة جديدة، كانت تقذف برجلها حجرًا صـغيرًا، تنقله من مربّع إلى آخر برشاقة صقلتها سنوات من التدريب، وأنا أحاول تقليدها بحركات ثقيلة خرقاء.. كان لا بدّ لي (وأنا ابنة الأسـتاذ!) أن أسـترجع كرامتـــي الـــتي هدرها الخوط، فأخبرتها عن الراديو، وكيف يخرج الصـوت والأغاني من صـندوق خشـبيّ، وعندها صـاحت "الدم يهرّ عيونك شو شلّيتة." فأدخلتها إلى البيت لتشاهد بنفسها وتتأكّد، وكنت أحرّك إبرة راديو فيلبس من محطّة إلى أخرى باعتزاز شديد!.

أخبرتنـي أيضًا عن "الرَصَدَي" الـتي تتنكّر بأشكال مختلفة، قد تكون إنسـانًا أو حيوانًا أو نباتًا أو حتّـى جمادًا، وهي تترصّـد الأطفال، وتخطفهم لتُمارس عليهم كلّ أنواع التعذيب!.

بتـــردّد سـألتها عن شـياطين جهنّم الذين رأيتهم عندما كنّا في السـيّارة القادمة من لبنان.. قالت بعد تفكـــير: "يمكن هذول رصـــد"، وبدأت تسـألني عن التفاصيل برعب شـديد. وصـفتُ لها عيونهم وذيولهم، وهي ترتجف من الخوف.. ثمّ وصفت لها أصواتهم:

- موووووووووووووووووو

- الله ياخذك.. ولك هذا عجّال البقر!

عجّـال البقر! كلّ هـذا الرعـب وهـذه الكوابيس هو من عجّـال البقر؟ ولكن كيف لي أن أعرف، والبقرة الوحيدة الـــتي كنت أشـــاهدها في لبنان، هي بقرة عمّـــي نجم الـــتي اعتاد صاحبها أن يأخذها إلى العين، لتشـرب وتأخذ حمّامها اليوميّ، كانت تسير بخطوات متّزنة متمهّلة مثل ملكة، متباهية بعقود الخرز والصـدف والأجراس النحاسـيّة الصـغيرة التي تُصـدر أصـواتًا موسـيقيّة جميلة.. طريق مرورها كان يبعد حوالي مئتـــي مـــتر عن بيت جدّي، وهذا البعد كافٍ كي تبدو مثل أيّ حيوان منزليّ لطيف، أمّا أن نكون محاطين بمئات الأبقار المســرعة الهائجة القذرة، لا يفصـــلنا عنها إلاّ زجاج الســيّارة، فهذا أكـــثر من قدرة (الشوفانيّة الصغيرة) على الاحتمال!

تطوّعت نجوى لتشـرح لي أنّ الأبقار تعود مع راعي العجّال من البرّيّة في المســاء إلى بيوت أصـحابها، وأنّ الأطفال يركضـــون وراءها، يجمعون الروث الـذي يحوّلونـه إلى"جلّـة" تُنشـــر على الجـدران حتّـــى تجفّ، وتستخدم وقودًا في الشتاء..

ثم تابعت بلهجة مفاخرة:

- نحنا منستعملش الجلّي، عنّا بابور كاز..
- ونحنا عنّا بابور كاز بريموس كمان!.

وكان لا بدّ أن تتباهى بشيء آخر:

- جيراننا عندهن تلفون.. بيت جدّك بلبنان عندهن تلفون شي؟

كان عليّ أن أعترف بأنّ بيت جدّي لم يكن لديهم تلفون.. وكم نمت وأنا أحلم بأن يصبح عندنا وعند بيت جدّي تلفون، لأكلّمهم وأسمع أصواتهم.. وخاصّة صوت جدّي أبو نايف نعيم.

زيارة جدّي أبو نايف

كنت ألعب مع نجوى عندما نادوني:

- سلمى تعالي سلّمي على جدّك بو نايف..

جدّي هنا.. في السـويداء.. في بيتنا.. قفزت دون وعي، سـقطت فردة شحّاطتي، فركضت حافية..

وقفت بالباب، عيناي تبحثان عن هالة نورانيّة، لم أشاهد سوى شيخ عجوز غريب..

- تعالي سلّمي، هذا جدّك بو نايف علي..

أردت أن أصرخ في وجوههم: من قال لكم إنّني أريد جدًّا آخر، أبو نايف آخر.. جدّي أبو نايف نعيم يملأ كلّ مسـاحات القلب والذاكرة، عدت أبكي صـدمتي وخيبتـي.. وربّما كان الجدّ الآخر يحسّ بنفس الخيبة والصـدمة، فحفيدته ابنة الأسـتاذ لم تكن من الجنس المناسـب.. أو اللون المناسب.. أو الحجم المناسب!.

* * *

كنت أسـمع عنه في لبنان من أقارب جدّتي! وكان في كلامهم كـثير من اللوم لأنّه أضـاع ثروة جدّتي الطائلة، فعادت إلى لبنان مع أطفالها وليس لها غرفة تؤويها، واضـطرّوا لأن يسـكنوا في "قبو المقاطيع" الذي أصـبح موضـوعًا لقصّـة مؤثّرة في كتاب الأديب سـلامة عبيد "ذكريات الطفولة"..

لم يكن يعنيهم أنّه كرّس ثروته، وثروة جدّتي للنضال، ولدعم المجاهدين وأسرهم.. كان تعاطفهم واضحًا مع الجدّة التي عانت من التشرّد في صحراء النبك السعوديّة.. كانوا يلومونه أيضًا، على أنّه رفض عرضًا بأن يملك منزلًا فخمًا في سويسرا، مع حساب بنكيّ محترم، مقابل أن يتنازل عن المطالبة بحقوق الوطن.. كانوا يعتبرون رفضه سذاجة، فالحياة في سويسرا "جخّ ورخّ" ومستقبل وعلم للأولاد، وإذا أرادوا العودة يومًا فسيكونون متعلّمين و"زناكيل".. ماذا في صحراء السعوديّة غير الرمل والجوع والبهدلة؟ ثمّ يتابعون ساخرين:

- إذا إجا من سويسرا لابس برنيطة، وحامل غليون، وبيحكي فرنساوي، ومعو مصاري الناس بتضربلو سلام.. الدنيا مع الواقف!.

كانوا يروون أنّه أراد أن يبيع قصرها فلم تقبل، وقالت إنّ القصر لأولادها، وإذا اضطرّت لبيعه فسيكون من أجل تعليمهم.. ولكنّ القصر بيع كما بيعت كلّ أملاكها.. كنّا عندما نمرّ من سوق الغرب يشيرون إلى جبل جميل مهيب، ويقولون هذه: "تلّة ناصر"، وقد سمّيت على اسم صاحبها ناصر عبيد جدّ جدّتك شريفة..

كانت الرواية تختلف عندما يكون المتكلّمون من المثقّفين الوطنيّين الواعين..

علي بك.. هذا البطل المناضل، الشاعر، السخيّ اليد، البعيد النظر.. إنّه الرجل الذي لم يبخل على الوطن بمال أو بولد.. ناضل بالفكر والسيف والقلم.. جُرح عدّة مرّات.. وأمضى زهرة شبابه في صحراء مقفرة، ولم يخضع لترهيب أو ترغيب..

باع أرزاقه قبل أرزاق زوجته.. عندما أراد بيع القصر رفضت أمّ نايف التخلّي عن بيت والدها، فوجد أبو نايف علي نفسه أمام خيار صعب، القصر لزوجته وهي لم تقصّر في دعمه، ومن حقّها أن ترفض، ولكنّه مسؤول عن جمع التبرّعات للثوّار، فكيف يستطيع أن يطلب من الآخرين أن يتبرّعوا وزوجته تملك قصرًا مهيبًا في عاليه؟ كيف يتخلّى عن الثوّار الذين ضحّوا بكلّ شيء من أجل الثورة؟ هل يقول لهم: "اذهبوا أنتم وأولادكم وموتوا قتلًا وجوعًا، وأنا أرسل أولادي ليعيشوا في قصر منيف؟".. هل يترك الناس الذين وثقوا به دون طعام دون شراب دون سلاح؟.. أمّ نايف غضبت عندما تمّ بيع القصر دون موافقتها.. هي أمّ تقودها عاطفتها، ومن حقّها أن تغضب.. ولكنّها ستتفهّم وتسامح.. أن يعيش أولادهم دون قصر خير لهم من أن يعيشوا دون وطن..

* * *

والدي لم يكن يروي لي حكايات نضالهم وتضحياتهم، أراد أن أكتشف الحقائق بنفسي أوّلًا بأوّل.. لم يغصبني على السلام على جدّي أبو نايف علي.. والجدّ كان لديه الكثير ممّا يشغل باله..

الخالة أمّ ملحم

نذهب لزيارة الخالة أمّ ملحم، وهي زوجة الشيخ حمد الفقيه صاحب شركة الكهرباء. في بيتهم الجميل المُحاط بحديقة خضراء.. تستقبلنا بالترحاب، وتشاهد الطفلة ثلاث صبايا جميلات يلبسنَ ثيابًا لبنانيّة أنيقة، ويُسامرن والدتي بمحبّة وانسجام..

نجلس قرب الخالة، التي كان في عينيها الخضراوين بريق لم تُطفئه سنواتها الخمسون، لتحدّثنا عن ذكريات طفولتها.. تقول وهي تضحك بمرح طفوليّ:

- بخبّركن بَسْ تبرطلت بكمشة ملبّس وقضامة؟!

وأنا الآن أعيد حكايتها:

"كان حلم فتيات قريته والقرى المجاورة شابّ وسيم، أنيق، متعلّم، ميسور الحال، ابن عائلة محترمة.. رشّحوا له كثيرات، ولكنّه بقي عصيًّا عليهنّ!.

إلى أن رآها.. إلهة جمال تمشي على الأرض.. لم يكن قد شاهد بعد مثل هذا الحسن الربّانيّ.. قوام طويل ممتلئ يتمايل مثل غصن البان.. خدان بلون التفّاح.. عينان مثل بستان ربيعيّ..

تبعها وسأل عنها.. والدها كان شيخًا وجيهًا وفقيهًا في عاليه وصديقًا لوالده.. تمّت الخطبة وفرح الجميع.. إلى أن اشتاق يومًا إلى عروسه.. ذهب لزيارتهم، فوجد أختها الصغيرة تلعب في الحديقة، برطلها بكمشة ملبّس وقضامة لكي تستدرج الخطيبة إلى الغرفة المجاورة، فيستطيع أن يراها من ثقب الباب!.

نظر من ثقب الباب، وإذا بعروســه قد كشّــت فلا طول ولا عرض! والتفّاح على الخدود بدا في عتمة الغرفة وكأنّه قد تحوّل بقدرة قادر إلى باذنجان!.

عاد إلى والده:

- مش هيذي يلّي بدّي ياها.. بدّي البيضا الطويلة..

- وكيف شفتها؟؟

كان لا بدّ أن يروي القصّــة لوالده بصــدق، وإلاّ اتُهمت الخطيبة بأنّها "عديمة الحشمة والحياء"، وتسمح لخطيبها برؤيتها!.

- يا عيب الشوم.. يا عيب الشوم.. بتلحق الصبايا، وبتتلصّص من الأبواب! يا ضيعان التربية.! بدّك تتجوّزها غصب عنّك..

* * *

لم تعرف العروس حينها بما حصل، وتمّ العرس وأحضروا العروس.. وجدها حنطيّة اللون، جذّابة الملامح.. والأهمّ أنّها كانت ذكيّة، حنونًا، مرحة، قويّة الشخصية، وسيّدة مــنزل من الطراز الأوّل.. مع العِشرة أحبّها من كلّ قلبه.. وأنجبت له البنين والبنات..

تزوّجها بالغلط! ولكنّها كانت أجمل "غلطة" في حياته وحياة أبنائه وأحفاده..!

كنّا جالسين وحولنا ورود حديقة خالتي أمّ ملحم الجميلة، وهي تسلّينا بقصص مرحة.. وجاء سؤالها مباغتًا:

- قِدِرْ الشيخ أبو نايف علي يدبّر المبلغ؟

- وكيف بدّو يدبّرو والناس بتقول "اصــرف ما في الجيب يأتيك ما في جيب بو نايف علي!" وبس بو نايف يفضى جيبه ما بيبقى حوله لا جيوب ولا قلوب!.

- بيرهن بيته منشان يكفل الناس؟ هَيْ عملة بيعملها عاقل؟

لم أفهم في حينها لماذا فعل جدّي أبو نايف علي ما فعل.. لماذا أجهز على ثروته وثروة زوجته الطائلة؟ هو لا يملك سوى البيت الذي يعيش فيه مع أطفاله، وراتب تقاعد هزيل. لماذا يكفل الناس بمبالغ ليس في قدرته تسديدها؟

نقلت الخالة أمّ ملحم عدوى الغضب إلى الطفلة التي أمضت الليل قلقة.. أين يذهب إذا تمّ الحجز على بيته؟.. ولكنّها عندما كبرت فهمت.. وكتبت..

جدّي أبو نايف علي

هل حسبتها غلط يا أبو نايف؟

واحد "زائد" واحد يساوي اثنين، هكذا يقول المنطق والرياضيّات!

عند أبو نايف:

- واحد وواحد يصبحان أحد عشر إذا وقف الواحد جنب الواحد، مئة وأحد عشر إذا ساندهما ثالث.. الرابع إذا انضمّ إلى الثلاثة تزيد القيمة ألفًا..

- "ضرب" بين واحد وواحد، يذهب واحد ويبقى واحد. ولا أحد يضمن من يذهب ومن يبقى..

- ويا ويل الواحد والواحد إذا ما انحشر بينهما "ناقص"!

يمشي في السوق.. في الماضي كان التجّار يقفون صفّين للترحيب بالبيك.. الآن أصبحت تحيّاتهم فاترة.. تجرّأ أحدهم اليوم فقال:

- الحساب ثقل يا شيخ بونايف..

- الله بيهوّنها..

يصل إلى البيت.. لا أحد في المضافة.. يشرب فنجان القهوة وحيدًا.. ليس معه إلاّ الذكريات:

الأيّام مّرة والأمل ينعش البال ... ولولا الأمل تولى الرجال الخباله

الأيّام مركوزة على جدب وإقبال ... وقليل من بالناس دهره صفا له

ما هو أسفنا من فقد أرض وأموال ... إلا الأسف اللي فقد من رجاله

الإنسان في الدنيا ترى زول وخيال ... وما ينفع الإنسان إلاّ أعماله

سـيارتك الـتي كان الناس يأتون للتفرّج عليها.. ليشـاهدوا بأعينهم الحصـان الحديديّ الذي لا يأكل ولكنّه يشـرب (بولًا كريه الرائحة).. تلك السـيّارة حرقها الفرنسـيّون نكاية بك وبأولادك.. أموالك وأرزاقك اسـتهلكتها الثورة. وعندما انتهى المال قبل أن تنتهي الثورة، اسـتأذنتَ أمّ نايف في بيع أرزاقها الطائلة في لبنان فلم تُمانع.. كانت رفيقة درب، ورفيقة نضال.

لم يبقَ سوى الراتب التقاعديّ.. وحتّى الراتب لا يسلم من القاصدين:

- إلك ولاّ للذيب يا بو نايف؟
- إبشرْ..
- العيال محتاجة يا بو نايف..

إذا لم يكن معه استدان.. وهل يُكفَّح قاصد وهو أبو نايف..

يأتي آخر، ابنه يريد السـفر وليس معه "ناولون" ارهن بيتك واكفله يا أبو نايف، وعندما يصل سـيردّ المبلغ إن شـاء الله.. ولكن الله لا يشـاء.. والكفيل ملزم بالسداد..

ويجيء التبليغ: الدفع أو الحجز..

ويأتي من يقول: هل هذه عملة يعملها عاقل؟

يا قلب يلّي بشقا الدهر مهتم

يجيء الأستاذ بشهادته الكبيرة من الجامعة الأميركيّة، ويسمع الجميع بأنّ راتب الأستاذ هو ثلاثمائة ليرة في الشهر.. مبلغٌ ضخمٌ خياليّ لم يسمع به أحد من قبل!

الزيارة الأولى تكون للسلام، الثانية "للتشاور"، وجاءت زيارة الشيخ أبو نايف الثانية بعد أيّام..

قصدوه ليكفل أولادهم المسافرين إلى المهجر.. رهن بيته ليكفلهم في تسديد "ناولون السفر".. لا المسافرون أرسلوا مالًا، ولا الأهل قادرون على التسديد..

ماذا يفعل الأستاذ والمبلغ بالآلاف؟ وراتبه تفرّع مثل نهر بردى.. ولم يبقَ لعياله إلا أقلّ القليل.. ليس عنده ما يُباع، ليس عنده ما يُرهن..

يستدين على الراتب، ولكن من سيُقرضه؟ وإذا استدان فكيف يسدّد هذه المبالغ الكبيرة؟

يتحادثان، يتشاوران، يستعرضان طرقًا للحلّ فيجدانها مسدودة..

وتخرج زفرة من صدر أبونايف يطلقها شعرًا:

يا قلب يلّي بي شقا الدهر مهتمّ

وحزين يا قلبٍ على الدوم مهموم

* * *

يستعرض شريط حياته..

نزح والده أبو علي حسين من عاليه إلى جبل حوران، بعد أن لاحقه العثمانيّون، بسبب مواقفه النضاليّة. جاء إلى الجبل، ووجد فيه مُتنفّسًا لحرّيّة كانت تفتقدها المنطقة، ووصفها أحد الشعراء الإنكليز بهذه الأبيات:

"شجعان، أشدّاء، أُباة، ذوّادون عن الحرّيّة
وهذه المنازل المُلتفعة بالعواصف منازلهم..
إنّهم، هم وحدهم..
بينما كلّ من حولهم يركع ضارعًا
خاشعًا للسيف العثمانيّ
يعلّمون راية الطغاة ذات الهلال الشاحب
أن تخاف الغضبات الوطنيّة من أسنّة رماح الجبل".

أحبّ السويداء وأحبّته، فأصبح رئيسًا للبلديّة عام 1890، ثمّ رئيسًا للمحكمة البدائيّة والجزائيّة..

* * *

تمرّ السنوات، ويذهب علي إلى لبنان للدراسة في اختصاص يمكن أن يطلق عليه الآن "حقوق واقتصاد"، ثمّ يعود ليتولّى وظيفة قاضٍ مدنيّ، ثم منصب مدير زراعة، وليعيش في كنف أسرة متحابّة مثقّفة، وذات مستوى ماديّ جيّد أضيفت إليها ثروة زوجته..

ولكن، هل يقبل أهل الجبل الذين لم يخضعهم الأتراك أن يرضخوا لعنجهيّة المستعمر الفرنسيّ وتسلّطه؟ هذا البلد لا يقبل أهله الضيم.. لم يقبلوه سابقًا فهل يقبلونه الآن؟

حنّا حرار وما منغدي مماليك

النمر ما يوفّي وظيفة سلوقي

كانوا يدركون تكلفة الحرب الباهظة، فحاولوا بكلّ الوسائل أن يصلوا إلى بعض حقوقهم عن طريق المفاوضات، ولكنّ فرنسا كانت ترسل حثالة البشر، ليظلموا ويستبدّوا، ويرفضوا الاستماع إلى صوت العقل والضمير.. كانت أيّ وشاية كاذبة، أو حادثة تافهة، تعرّض نخبة شرفاء الجبل إلى السجن والإذلال والجلد.. الحالة لم تعد تطاق..

البارحة والعين عيّت على النوم ... من واهج في الصدر طيّر وسنها
وحزين قلبٍ من غثا الدهر مكظوم ... وعينٍ حزينه، الدهر قرّح جفنها
ياعين هلّي واسكبي الدمع عالدوم ... ومثل السحايب يوم يهطل مزنها
على جبلنا أصبح اليوم محكوم ... من الأجنبي، والعرب تبكي حصنها
ركّس علينا وادعى الليث ملجوم ... وأطلق خليقة ما بتعرف رسنها
الحر ضاع، وضاع من كان معلوم ... قصور العوالي اليوم عاود سكنها
من الأجانب قد غدا الدم مسموم ... والبعض منّا للشهامة دفنها
لأجل لقمه من لقاقيم زقّوم ... بعض المواشي ما يفيده سمنها
البعض لو يطووا الليالي على الصوم ... أخيَر ما بالذلّ يشبع بطنها

وكانت الثورة..

الثورة ضمّت نخبة من كبار المثقّفين، وشارك فيها مناضلون لبنانيّون تركوا حياة القصور والرفاهية والمناصب العليا، وجاؤوا ليناصروا الثورة بالسيف والقلم، ومنهم الأميران عادل أرسلان وشكيب أرسلان.. جاء رشيد طليع وفؤاد سليم.. جاء عادل النكدي.. حمد صعب.. شكيب وهّاب.. وغيرهم كثيرون.. ناصرها مثقّفون من مختلف أنحاء الوطن العربيّ والعالم: من الأردن أكرم زعيتر وعبد الحميد شومان، من فلسطين عبد القادر الحسينيّ والمجلس الإسلاميّ الفلسطينيّ، من مصر كتبت عنها الصحف والمجلاّت.. وخطّ لها شوقي أجمل القصائد.. من الجزائر وبلدان المغرب العربيّ كان المجنّدون في الجيش الفرنسيّ يساعدون الثوّار، وينقلون إليهم أخبار تحرّكات الجيش الفرنسيّ، وكثيرًا ما كانوا يفرّون من ذلك الجيش الذي يجبرهم على مقاتلة إخوانهم، ويلتحقون بالثورة.. في فرنسا والعالم، انطلق الأحرار من كلّ الجنسيّات لتأييد ثورة الحرّيّة والكرامة.. وفي سورية تفجّرت الثورة، وانتقلت من مكان إلى آخر.. كانت ثورة إنسانيّة ضدّ الظلم والاستعباد.. كانت مشعلًا أيقظ العملاق النائم في البلدان العربيّة والعالم، فخرج هادرًا مطالبًا بحقّ الشعوب في حياة حرّة كريمة..

* * *

اندفع الجميع في الجبل لمساندة الثورة، ولم يخلُ الأمر من حثالة عملوا في الجاسوسيّة، والسرقة، والفساد، وتدمير البلد من الداخل.. كانت البطولات خارقة، وقادرة على كسر شوكة المستعمر، ولكنّ فرنسا وبريطانيا وعملاؤهما من بعض المسؤولين في البلدان العربيّة، أدركوا أنّ هذه الثورة إذا نجحت فستكون قادرة على تغيير وجه العالم، وحرصوا برغم اختلاف مصالحهم على التوحّد للقضاء عليها بعنف ووحشيّة..

وكانت المجزرة.. حرب إبادة.. في محافظة عدد سكانها في ذلك الوقت خمسون ألفًا كان الشهداء أكثر من ألفين.. وأكثر منهم قضوا جوعًا وبردًا ومرضًا، وهم يفرّون من الطائرات المحمّلة بالموت. وأصيب كثيرون بإعاقات دائمة، حوّلت حياتهم وحياة أسرهم إلى جحيم.. تمّ هدم البيوت، وتدمير الكروم، وسرقة ذهب النساء، مع تسليم الحثالة المتواطئة أهمّ المناصب..

* * *

هل بعد أن قدّم أهل الجبل ما قدّموا من تضحيات يمكن لأبو نايف أن يتخلّى عنهم وعن أولادهم؟

لن يفعل.. وإن رأى بعضهم أنّ رَهْنَ بيته من أجل الآخرين تصرّف "لا يفعله عاقل"..

ريجيم !

- تفضّل بطاطا يا دكتور..

- no no no ريجيم

- تفضّل رزّ يا دكتور..

- no no no ريجيم..

كان ذلك في أوائل الخمسينيّات، جاء الدكتور نقولا زيادة مع مجموعة من أساتذة الجامعة الأميركيّة في بيروت إلى السويداء ليُحاولوا إقناع الوالد بالتدريس في الجامعة.

كانت السويداء في ذلك الوقت تعيش حالة فقر مدقع، بعد أن دفعت ثمنًا باهظًا للاستقلال، من أرواح نخبة أبنائها، ومن ثرواتها.. وبعد أن تتالت عليها سنوات قحط لا ترحم.. وكان عدد كبير من العائلات التي قدّمت كلّ شيء للثورة تضطّر للنزوح إلى دمشق ولبنان، لتعيش في بيوت من الصفيح، وتعمل في أعمال مُضنية خطرة، مقابل ليرات شحيحة مغموسة بالدم..

سلامة عبيد لم يكن ليقبل لأبناء بلده هذا المصير.. إذن لا بدّ من العضّ على الجرح والتحمّل.. وكما تحرّر البلد من الاستعمار الفرنسيّ سيتحرّر أيضًا من الهيمنة الاقتصاديّة للثروات المشبوهة للخونة وأغنياء الحرب..

راتب والدي تحوّل إلى مصـرف تسـليف شـعبيّ! والفرق أنّ المصـرف يُقرض ثم يسـترد، أمّا مصـرف والدي فقد كان يعطي دون أن يتوقّع السـداد.. وكنّا نحن أسـرته الأكـثر حاجة إلى الدعم، ولكنّ الطلبات كثيرة، ولأنّنا الأخفت صوتًا، فقد كنّا في ذيل القائمة..!

الطعام بدأ يتراجع كمًّا ونوعًا.. نفطر في الصـباح على خـبزٍ مغموسٍ بالحليب.. وبعد مدّة يخلط الحليب ببعض الماء.. وأخـيرًا، يصـبح الحليب مادّة لتلوين الماء بما يشـبه اللون الأبيض.. وقد يمنّ الله علينا ببيضـة نتقاسـمها جميعًا مهلّلين! وعلى رفّ المطبخ كانت تتربّع علبة سـردين جليلة، منتظرة وصـول ضـيف رفيع المقام، يسـتحقّ شـرف تناولها!. وكم كنّا ننام وصـورة علبة السـردين تدغدغ أحلامنا.. كنّا نحلم أحيانًا بسُـفرة جدّتي في لبنان: السـمك الطازج المقليّ بزيت الزيتون على موقـد الحطب.. صـحن الفتّوش بمكونّاتـه العشـرين المقطوفة لتوّها من حديقة الدار.. ولكنّنا فضّـلنا أن نتقشّـف حتّى في الأحلام.

عندما أرسل والدي من يخبر الوالدة أنّ أساتذة من الجامعة الأميركيّة قادمون لزيارتنا، وسيتناولون الغداء عندنا.. تصوَّرتُ أنّهم سيتناولون علبة السردين العتيدة! ولكنّ ما حصل كان شيئًا يفوق الخيال..!

أرسـلت والـدتي من يشـتري كميّـة وافرة من اللحم، من أجـل عمـل "رولو"..

أشـــبعت اللحم دقًّاً في الهاون النحاســيّ.. ثمّ فركته بالبهار، وفردته كالعجين، ووضعت داخل اللحم بيضًا مسلوقًا، لفّته بشكل أسطوانيّ، وربطته بالخيطان.. وجاء دور القلي، ذهبنا إلى طاقة المطبخ لنتابع عمليّة قلـــي الرولو.. منظر اللحم الزهريّ.. ورائحة الســمن البلديّ والبهار.. وصـوت هسـهسـة اللحم وهو ينضج على النار.. كنّا ندور مثل قطط أضــناها الجوع من الطاقة إلى الباب.. ومن الباب إلى الطاقة، آملين أن تمنّ علينا الوالدة بقطعة ممّا رأيناه، وســمعناه وشــممناه.. ولكنّ الرولو كان للضيوف، وبعد الضيوف يأتي دورنا..

جاء الضيوف أخــيرًا، وتحلّقوا حول الطاولة في المضافة.. وأُحضــرت الأطايب، تتوسّطها بفخر كبير صينيّة الرولو.. كنّا نشاهد أطباق الأرزّ والبطاطا تُصــفّ على المائدة، ولكنّ عيوننا لم تكن تفارق لفافات الرولو.. وجدنا مركزًا آخر للمراقبة هو شــبّاك المضــافة، فتســلقنا الجدار، ووقفنا على الإفريز متمسّــكتين بحديد الشــبّاك، ورأســانا محشوران بين القضبان، من أجل مشاهدة أفضل وروائح أزكى.. ورأينا ما رأينا..أســطوانات الرولو تقطعها والدتي، وتنبلج كالصــبح أمام ناظرينا.. صــفار البيض يحيط به بياضــه، ثمّ اللحم الزهريّ يحيط بالبياض.. التصــق وجهانا بالنافذة، وكاد لعابنا يســيل على الزجاج.. هانت.. دقائق وينتهون، ونهجم على ما تبقّى من الرولو.. كان الدكتور نقولا زيادة يأكل باحتشـام شـديد، بينما أخذ الضـيف الآخر السـمين يفــــترس قطع الرولو واحدة بعد الأخرى.. كانت عينا الوالدة تقطران ألمًا، وهي تراقب أنفينا الأفطســين على الزجاج، وعبثًا حاولت إقناعه بتناول الأرزّ والبطاطا!..

حلقات الرولو الـــتي أشـبعناها بَحْلقةً وضـمًّا وشـمًّا منذ الصـباح، اختفت واحدة بعد الأخرى.. تلاشـى آخر أحلامنا مع انتقال القطعة الأخـــيرة من الرولو من الصـينيّة إلى الصحن.. ونزلنا وإحدانا تواسـي الأخرى.. ورحنـا ننـدب معًـا.. ودموعنـا على الخـدود.. أحلامًـا لـذيـذة أضاعها الريجيم!

حجز على بيت أبو نايف

يجلس أبو نايف علي مسـندًا رأسـه بيده، مفكّرًا بما آلت إليه حاله.. يقولون إنّه رهن بيته من أجل مساعدة غرباء.. "عمل لا يفعله عاقل"..

شـربوا كأس الجنون يا أبو نايف ولم تشـرب، فأصـبحت أنت المجنون..

رأيت ببعد نظرك ما رأته زرقاء اليمامة، ولكنّكم قلائل، وقصـار النظر كثيرون..

شاهدت شبابًا لم تذلّهم فرنسا، ولم تُردْ لهم أن يذلّهم الفقر..

أردت أن تساعدهم ليساعدوا غيرهم.. والغير يساعد الغير..

كنت تريدهم واحدًا يسـند الآخر.. فلا هم سـندوا بعضـهم، ولا سندوك..

ما أنت فاعل يا أبو نايف والدار ستر وكرامة؟

* * *

إذا اسـتأجر بيتًا فما الذي سـيبقى من تقاعده القليل؟ هل يسـكن في خيمة؟ وهل بقي لديه أرض لينصب عليها خيمة؟ هل سـيعيش مشـرّدًا في شيخوخته، ويعاني أولاده الأمرّين من الفاقة والعوز؟

يتذكّر أيّام العزّ، كان يؤمن أنّ المال لا قيمة له إذا لم يستخدم لمنفعة الآخرين.. جعل بيته مركزًا ثقافيًّا وحضـاريًّا.. ملجأً لكلّ محتاج.. بيت ضيافة لمن يريد أن يتعرّف إلى الجبل..

يتذكّر الأمريكيّ وليام سـيبروك الذي حلّ ضـيفًا مع زوجته عليهم، ولبسـت زوجة سـيبروك مصـاغ زوجته الثمين، وغطاء رأسـها الحريريّ الأبيض، ونشـرت صـورتها في كتاب "مغامرات في بلاد العرب"، وكيف أن سيبروك خصّه بإهداء بالاسم في مقدمّة الكتاب..

يتذكّر زيارات إبراهيم هنانو.. وخـير الدين الزركليّ.. وحنّا أبي راشـد، ونخبة مثقّفي الوطن العربيّ إلى مضافته العامرة..

هـل سـيتحوّل الآن إلى مُعـدم قـد يكفي ثمن بيتـه لتغطيـة نفقـات الكفالة، وقد يذهب إلى السجن إذا لم يكن المبلغ كافيًا؟

يُطلق عتابًا مريرًا.. مرارة العلقم في فمه:

بعض الأوادم عادمة الذوق والشمّ

الطيب مـا يظهر على كـل مزكوم

عمل المليح مليح مع ناس تفهم

ومع غيرهم مثل السحايب على رجوم

يسمع طرقًا على الباب.. هل هو قاصد آخر يقول له:

"إلك ولاّ للذيب يا بو نايف؟"

لم يكن يردّ قاصـدًا.. ولكنّه الآن ما عاد قادرًا على المسـاعدة، يبقى جالسًا.. ما عاد عنده رغبة برؤية أحد..

يزداد الطرق على الباب، يتسـاءل أبو نايف.. هل جاؤوا ليأخذوا البيت ويطردوه منه..

لا بدّ من فتح الباب.. وليكن قدر الله..

يجد أمامه وجوها صديقة طيبة، تسلم عليه وتناوله أوراقًا.. الكفالة دُفعت وأزيل الحجز عن البيت.. الشباب الذين سافروا إلى بلاد الاغتراب لم يتمكّنوا من توفير أيّ مبلغ فقد كانوا غرباء معدمين.. زاد من فقرهم عدم معرفتهم باللغة. كان عندهم "ذوق وشمّ"، ولكنّ الظروف كانت أقوى منهم..

هاجروا من بلدهم مضطرّين.. في القلب غصّة، وفي العين دمعة.. يذرفون الدموع أهازيج على سفينة تنقلهم نحو المجهول..

ياوطنّا لوهجرنا ميرحنّا تاركين قلوبنا عندك رهينا[1]
يا وطنّا بالمغارب لوقطنّا نحيي رمزك عا رحانا رافعينا
ما زهدنا في بلدنا لو عنّا ينقطع غيث السما ولاّ روينا
لينا عودة حين بندك يطلبنّا عالحدود نصدّ جيش الطامعينا[2]

ما كاد أهل البلد من مقيمين ومغتربين يسمعون أنّ أبو نايف سيخسر بيته بسبب نخوته ومروءته، حتى تنادوا لجمع المبلغ وإزالة إشارة الرهن.. ونجحوا في ذلك..

وبقي أبو نايف في بيته معزّزًا مكرّمًا حتّى آخر لحظة من عمره..

* * *

أبو نايف لم يشرب كأس الجنون.. وسار على خطاه كثيرون.. وما زالوا!.

1-مير حنا : غير أنّنا.

2-بندك : علمك أو رايتك.

مدرسة الزهراء

كانت نجوى تلاحقني لأتخلّى عن اللهجة اللبنانيّة:

- اكربي براغي حنكك، واحكي على سوا!

وعندما أفشل أو أتمرّد كانت تصيح:

شوفاني طلع عالحيطْ.. أكل حمّص زَرَقْ زيتْ..

وكان الجواب الذي تعلّمته جاهزًا:

حوراني ركب جحشو.. وقع وانكسر بخشو..

كانت نجوى حريصة على أن أتقن اللهجة الجديدة.. وكانت أكثر حرصًا على أن تزوّدني بعدد وافر من الشتائم (لزوم المدرسة!). فالشتائم لا تُستخدم فقط في المشاجرات، بل تكون أحيانًا طريقة للتعارف وبدء حديث:

- بتلعبي بالخوط يا ماليت السمّ؟

وعلى الأخرى أن ترد الشتيمة بأحسن منها:

- بلعب يا ماليت الهرا.. تلعب العصاية بجنابك!

الشتائم التي أعرفها كانت "نايطة" هزيلة وقليلة، أمّا قاموس نجوى فقد كان غزيرًا بشتائم ساخنة، مُبدعة، غنيّة بتشابيه وصور تُلهب الخيال..

كان بعضها يستخدم الأسلحة الحديثة:

- دبابّة تمعمس عظامها معمسة..
- رصاص ينَعثر مصارينها نعثَرَة..
- قازان ينثرها فوق السطح نثوَرَة..

أحيانًا كانت الشتائم تستخدم الحرب البيولوجيّة:

- طاعون يهفيها هفي..
- حمّي تسلقها سلق..
- حال يحلّها ويذلّها..

في كثير من الأحيان كانت الشتائم تستنجد بالله لتحقيق المطلوب:

- الله يشوي فشّاشتها بنار جهنّم..
- الله يكسر إيدها ويعلّقها برقبتها..
- يقلع عينها.. قولي إنشالله!

أمّا الشتيمة المفضّلة عندي، فقد كانت:

تعجن وتسقّي تعجن وتسقّي
مقهورة منّي ان شالله بتنشقّي
دور بتحمرّي، ودور بتزرقي
مثل الحرباية بكعب البيتونا

أخيرًا، جاء اليوم الموعود.. نمت وأنا أتخيّل المدرسة.. صفوفها.. حديقتها.. معلّماتها.. مديرتها.. في الصباح شددنا الرحال إلى المدرسة.. اقتربنا من بناء أسود مهيب محاط بحديقة جميلة صرخت بفرح:

- هَذي المدرسة؟

وجاء الجواب مخيبًا للآمال:

- يبربق عيونك بربقة.. شو ضاربك العمى؟ هذا قصر المحافظ!.

خلف القصر شاهدت أشباحًا سوداء، ذكّرتني بقطيع الماعز!

أوقفونا في طابور طويل، ثمّ دخلنا الصفّ.. كان الصفّ طيفًا من كلّ الألوان المشتقّة من اللون الأسود: اللباس المدرسيّ أسود.. السبّورة سوداء.. المقاعد سوداء.. الجدران رصاصيّة قاتمة.. الأرضيّة رماديّة وسخة.. ولا شبابيك سوى طاقة صغيرة قرب السقف، لها قضبان حديديّة سوداء كقضبان السجن..

وجاءت المعلّمة بوجه كالح، ترتدي أيضًا اللون الأسود:

تهامسنا أنا ونجوى، وجاء ردّ المعلمة منسجمًا مع "إشراقة وجهها!".

- اخرسي وسدّي بوزك.. ضربة تخلع حنكك!

تساءلت.. هل ستحوّلنا المدرسة إلى قطيع ماعز؟

كنت مخطئة..

أين الماعز وأين نحن؟

العنزات تذهب إلى البرّيّة.. تتحرّك عندما تشاء.. تأكل عندما تشاء.. تشرب عندما تشاء.. تفرغ أمعاءها عندما تشاء.. تتسامر بلغتها المعزاويّة عندما تشاء..

ونحن هنا مصلوبون على مقاعد خشبيّة قاسية.. الأكل ممنوع.. الماء مفقود.. الحمّامات كابوس.. والأدهى من ذلك أنّ من يفتح فمه "يخلعون له حنكه"!!

دبّ النافعة

ونعود إلى الشوفانيّة الصغيرة..

عاللوما اللوما اللوما عاللوما اللوما اللوما

جينا واستنظرناكي وإنتي طوّلتي النوما

كنت أسمع أغنية نجوى بعدما تملّ من انتظاري أمام البيت كلّ صباح.. كانت نشيطة تستيقظ عند الفجر، ولم أكن كسولةً، ولكنّني لم أجد ما يحفزني للنهوض! برنامجنا السياحيّ اليوميّ يشمل الحيّ والأحياء المجاورة، دون علم أمّي وأمّها. كانت تعرف ما ينتظرها إذا انكشف أمرها، ولكنها كانت تتصرّف من مبدأ "القتلة بتفوت وما حدا بيموت".

وصلنا إلى النافعة.. كانت شركة الكهرباء في الخمسينيّات شركة خاصة، واسمها الشائع هو "النافعة"! وبسبب سمنته المفرطة كانوا يطلقون على حارس الشركة اسم "دبّ النافعة".

وجدَتْ نجوى في الشوفانيّة القادمة حديثًا من لبنان صغيرة ساذجة من السهل تخويفها، فصاحت فجأة:

- طلع لك دبّ النافعة..

ركضت نجوى بخفّة.. وركضتُ وراءها برعب، وأنا أتخيّل دبًّا متوحّشًا يركض وراءنا..

* * *

عند عودة الأســتاذ، وكان مديرًا للثانويّة، وجدني أبكي خائفة من أن يأكلني دبّ النافعة! ابتســم الأســتاذ ولم يَقُل شــيئًا.. وبالرغم من تعبه أمســك بيدي الصــغيرة، وســرنا باتّجاه النافعة، بدأ قلبي يدقّ بعنف، ولكنّ يد الأب كانت تُعطيني إحساسًا بالأمان..

ناداه باســمه فخرج من غرفته الصــغيرة، وكم كانت دهشــته وفرحته عندما وجد الأســتاذ يزوره.. كان رجلًا لطيفًا بشــوشًــا، أخرج بعض كراسيّ القش، وضعها أمام الباب، وجلس يحادث الأستاذ، وأنا أتأمّل بفضول وارتياح هذا الرجل البالغ السمنة، واللطيف الحديث والملامح! بعد أن انتهت الزيارة أخبرني أنّ هذا هو "دب النافعة"!.

* * *

عَلِقتْ نجوى مع صغيرةٍ لها خيال مبدع! فقد أخبرتُها أن دبّ النافعة لا يأكل الصغار "المقرقدين" أمثالي، بل يفضّل السمينات، ووصفت لها بكلّ دقّة الأسياخ الحديديّة التي يستخدمها لشــيّ الأطفال المكــتنزين! وأصــوات الأطفال المســتغيثة! ورائحة الدهن المحترق الممتزجة برائحة البهارات التي يرشّها على الطفل قبل شيّه! قصص رعب جعلت نجوى تصــدّق الكذبة الــــتي بدأتها! وصــارت تركض بفزع كلّما اقتربنا من النافعة، وأنا أسير وراءها متمهّلة، وأصرخ بها كلّما لاحظت أنّها تعــثرت بمريولها الطويل:

- ولك لقطك دبّ النافعة!.

خروف مختلف اللون!

كنت في الخامسة، وسنّ القبول في ذلك الوقت كانت سبع سنوات، ولأنّ بعضهم لم ينتبه لأهميّة التعليم إلاّ متأخّرًا، فقد كان الصفّ الأوّل مزيجًا غريبًا من الأطفال والصبايا.. ولم يكن في المدرسة طفلة واحدة في الخامسة غيري.

كنت قادرة على القراءة والكتابة، والفضل في ذلك لأهل والدتي ولمدرسة الإنكليز، بينما اقتصرت الدروس في مدرسة الزهراء على تعلّم الحروف الهجائيّة.. وكم كنت أشعر بالملل القاتل، وأنا أكرّر طوال النهار با.. با.. ما.. ما.. وكأنّني فقدت اللغة الآدميّة، وتحوّلت إلى خروف يثغو! ذهبت إلى المديرة شاكية، وقلت لها إنّني أريد أن أنتقل إلى صفّ أعلى، وتناولت كتاب الصفّ الثالث الذي كان موجودًا على إحدى الطاولات، وبدأت أقرأ.. قرّرت إحدى المعلّمات أنّ عمري اثنتا عشرة سنة، ولكنّني (قزمة).. وعندما أخبرتها المديرة أنّني فعلًا في الخامسة.. نظرت إليّ برعب شديد، وبدأت تصيح:

- هَذي مخاويّة.. هذي مخاويّة الجنّ..!

لم تُسفِر زيارتي للمديرة عن نتيجة، سوى أنّ المعلّمة صارت تهرب من أمامي كلّما شاهدتني، وتُتمتم بتعاويذ مبهمة، وعندما لاحظتُ خوفها منّي، صرتُ ألاحقها بشقاوة، وأكلّمها بالإنكليزيّة، فتزداد رعبًا، وتفرّ من أمامي كأنّها تفرّ من شبح.

الملل لم يقتصر على الصفّ، فالباحة كانت أكثر إزعاجًا وإثارةً للملل.. ما تكاد الطالبات يخرجن ويتراكضن في جنبات الباحة الترابيّة، حتّى تتحوّل الباحة إلى ما يشبه ساحة المعركة، وتمتلئ صدورنا بغبار وسخ كثيف..

كانت البنات الأكبر سنًّا يعاملنني وكأنّني ابنتهن، ويسمحن لي باللعب معهنّ هامسات "عصفور طيّار".. أي أنّني أشارك في اللعب، لا في المنافسة المحسومة سلفًا لغير صالحي.

من الألعاب التي كنت أشارك فيها لعبة: "استدّ كفّك يا حرذون".. وخلاصتها أنّ اللاعب الذي يقوده سوء حظّه في القُرعة إلى أن يصبح حرذونًا، عليه أن يبحث عن أضعف فرد في المجموعة، فيُطارده ويضربه، ليُصبح المضروب حرذونًا يبحث عن ضعيف آخر يضربه، وإلاّ بقي حرذونًا في نظر الجميع.. كان من الممكن أن أبقى حرذونة دائمة في اللعبة، لولا قاعدة "عصفور طيّار". فلأنني صغيرة أتمكّن من الطيران، فلا يلمسني أحد..

كنت أتساءل: لماذا لا "يستدّ" المضروب كفّه من الضارب بل يمارس ظلمه على آخر.. لم أكن أدري أنّ الحياة كلّها هي لعبة "استدّ كفك يا حرذون" يُمارسها القويّ على الضعيف، الرجل على المرأة، الرئيس على المرؤوس.. حتّى القطّة تتلقّى ركلة من قدَمِ إنسان غاضب، فتذهب لتنتقم من فأرة صغيرة!

للأسف.. الحياة ليس فيها إعفاءات، ولا قاعدة: "عصفور طيّار"!..

طناجر إبليس!

طلبت منّـي المعلّمة أن أُحضر لها طبشـورًا من الصفّ المجاور. سرتُ متبخترة باعتزاز بعد أن حظيتُ بهذا التكريم..

في الخمسـينيّات، كان على المرأة الجبليّة أن تقوم بمهمّات تعجز عنها عشـر نسـاء.. وسـائل منع الحمل لم تكن معروفة آنذاك، فالمرأة تبقى إمّا حاملًا وإمّا مرضعًا..

العجين والخبز تقوم به ربّة البيت يدويًّا.. وعليها أن تحوّل كتلة عجين بحجم البرتقالة، إلى رغيف خبز مستدير، قد يصل قطره إلى ما يقارب المتر، مع كلّ ما يحتاج إليه ذلك من حُبّ وجهد ومهارة..

الغسّـالة لم تكن قد عُرفت بعدُ، ولا مسـاحيق الغسـيل.. والصـابونة تُمرّر على كلّ جزء من أجزاء القماش، ثمّ يدعك بقوّة اليدين. ولا ننس أنّ البامبرز ومحارم الورق لم تكن معروفة أيضًا.. ولن أشرح المزيد!.

العدس والبرغل يأتي وفيه من الحصى بقدر ما فيه من الحبوب، وعلى ربّة المنزل أن تقوم بتنقيته مرّات ومرّات، لأنّ نسـيان حصـاة واحدة قد يؤدّي إلى كسـر ضـرس، وهذه كارثة مع افتقار المحافظة إلى طبيب أسنان مجاز يملك عيادة نظاميّة..

الجلي يسـتلزم اسـتخدام الليف المعدنيّ في تنظيف الطناجر والأباريق من السـخام الذي ينتج عن موقد الحطب، ومثله بدرجة أقلّ بابور الكاز، والفرك يجب أن يسـتمرّ مدّة طويلة، وبجهد كبير، لإزالة اللون الأسود، وإعادة الأواني إلى لونها الفضّيّ البرّاق..

الخياطة تقوم بها الأمّ يدويًا بغياب ماكينة الخياطة عن أغلب البيوت.. وحـتّى الملابس الداخليّة كانت تُخاط من أكياس الطحين الفارغة!

وكنزات الصـــوف تحـاك على "الســـنـانير.. الكنس.. المســـح.. الترقيع.. تحضـــير المونة.. إحضـــار الماء من مســـافة بعيدة.. الاهتمام بالنعجة المعلوفة.." ومئات المهمّات المتفرّقة الأخرى..

يضـــاف إلى ذلك أنّ البيت يجب أن يبقى على اســـتعداد لاســـتقبال ضـــيوف محلّيين، أو قـادمين من القرى للإقـامـة أيّـامًـا لـدى أقـاربهم، لإنهاء معاملاتهم في الســويداء، وعلى ربّة البيت أن تسـتقبلهم بكلّ الودّ والترحاب، مهما امتدّت إقامتهم، وتحضر لهم ثلاث وجبات متقنة، تُعدّ في اليوم نفسه، فالبرّاد لم يكن منتشرًا آنذاك..

إذا أضـفنا إلى ذلك كلّه أنّ ربّة البيت معلّمة، ودوامها صـباحًا ومسـاءً، فلنا أن نتصوّر معاناتها في ذلك الحين!

إحدى المعلّمات كانت تجلب معها أحيانًا موادّ الطبخة إلى المدرســـة، لتحضيرها أثناء الفرصة.. فتدخل صباحًا في موكب من الطناجر، ربّما يكون في إحـداهـا ورق ملفوف، أو ورق عنـب، وفي الثـانيـة الحشـــوة، وتكون الثالثة -وهي الأكـــبر حجمًا- فارغةً بانتظار رصّ اليبـــرق فيها.. وتتجنّد المديرة والمعلّمات لمسـاعدتها في تحضـير الطبخة.. وعند الظهر يخرج موكـب الطنـاجر، تخرج الطنجرة الكبيرة ملكـة تحـدّق إليهـا العيون.. وخلفها الأخريات مثل وصـــيفات!. موكب كان يســـتثير حنق أطفـال ببطون خـاويـة، بعـد يوم دراســـيّ طويـل. لـذا أطلقـت زمرة من المشـاغبين الصـغار على المعلّمة المسـكينة اسـم "طناجر!". كنت أسـمع التلاميذ يتناقلون اسم "طناجر" وظننت أنّ هذا هو اسمها فعلًا! فمنذ قدومي إلى الســويداء، وأنا أســمع أســماء غريبة مثل: هجيجة، بلشــة، شـــملكان، جدعة، نفّجة، خزعة.. واســـم طناجر لم يبدُ لي أكثر غرابة من تلك الأسماء.

قرعت الباب بكلّ تهذيب.. واستقبلتني المعلّمة بلطف وحفاوة:

- أهلين حبيبتي.. شو بدّك؟؟

كان محظورًا علينا في المدرسة الإنكليزيّة في لبنان استخدام اللغة العربيّة فأجبتها بالإنكليزيّة:

- Mrs. Tanajir please..

ولم أتمكّن من إكمال عبارتي التي حاولت أن تكون لطيفة ومهذّبة قدر الإمكان، فقد بدأ التلاميذ يصخبون ويصيحون:

- طناجر إبليس .. طناجر إبليس..

ولم تتمكّن من إسكات الصفّ، فصبّت غضبها عليّ:

- انقلعي.. ضربة تخلع رقبتك..

لم أفهم وقتها سبب ثورتها، وانقلابها المفاجئ.. ولكنّني فهمته عندما تحوّل اسمها في المدرسة من "طناجر" إلى "طناجر إبليس"!..

تلفون من لبنان

جاء ابن الجيران راكضًا..

- يا خالتي إم سلمى، تلفون من لبنان..

في الخمسينيّات، كان وجود التلفون رفاهية لا يملكها الكثيرون! وكانت الاتّصالات تأتينا إلى بيت أحد الجيران الذين أنعم الله عليهم بهذا الاختراع العجيب..

سابقتُ والدتي.. سقطتُ، وجرحت ركبتي ولم أهتمّ.. سبقتها.. أمسكت بسمّاعة التلفون، وأطلقت نداء استغاثة:

- يا جدّي أنا مش مبسوطة بالسويدا.. بدّي ارجع على لبنان..

وتابعت مهدّدة:

- إذا ما رجّعتني بدّي روح زِتْ حالي بالوادي وموت..

في اليوم التالي، كان الشيخ السبعينيّ المريض بالقلب يقرع باب بيتنا في السويداء.. جاء محمّلًا بالهدايا الكثيرة، وبأصيص زنبق أبيض على وشك التفتّح.. ولكم أن تتخيّلوا منظر الجدّ العجوز، وهو يتنقّل من كراج إلى آخر مع الزيت والزيتون، والصابون، والمقطّرات، والمربيّات، وغيرها.. وفوق كلّ هذا أصيص كبير وثقيل من الزنبق.

جاء تلبية لنداء الاستغاثة، وعندما قال لوالدتي:

- إلي عندك طلب.. وبرضايي عليك ما تكسفيني.. سلمى مش مبسوطة هون وأنا جاي آخذها..

لم يكن بإمكان والدتي أن ترفض..

وحانت ساعة الرحيل..

والدي نظر إليّ بحزن وعتب:
"بيتنا جربّتُ أن يبدوَ في أحسن زينةْ
في بياض الياسمينةْ
فلماذا يابنتي جئتِ حزينةْ؟"
والدتي تفجّرت عواطفها ينابيع سخيّة من الدموع والنشيج.. بكت غربتها، وبعدها عن أحبابها.. مشكلاتها التي لا تنتهي، لؤم أبو فيّاض والعديد من الفيّاضين والفيّاضات الذين امتلأ بهم البيت وفاض.. أختي التصقت بوالدتي، وضمّتها بيديها الصغيرتين، وكأنّها حدست بحاجتها إلى لمسة مواساة، وانقلبت الأدوار في تلك اللحظة، وأصبحت الابنة هي الأمّ..
جاءت نجوى ودموعها تغرق خدّيها، وبلهجة ودّ صادقة قالت:
- بدّك تروحي عالبنان وتتركيني؟ أني ومين بدّي إلعب؟ دم بهريكي..

* * *

نقّل جدّي نظره بيننا، ربّما أحسّ بالندم في تلك اللحظة لأنّه وافق على تزويج ابنته إلى حوران، ربّما تكثّف شوق الماضي والحاضر والمستقبل إلى ابنته وصهره وأحفاده، إلى ضباب لزج خانق جعله يتنفّس بصعوبة.. لاحظ أنّ حماستي للذهاب قد فترت. كنت ممزّقة حائرة، فقد بدأ ينبت لي جذور هشّة في تلك التربة، لم أدرك وجودها قبل الآن..
وسقط سؤال جدّي مثل حمل ثقيل ألقي عليّ:
- بتحبّي تروحي معي أو تظلّي هون؟

تمنّيت حينها لو يأخذ القرار شخص آخر.. الذهاب موجع.. والبقاء موجع.. والأكثر إيجاعًا هو أن تُترك لي مسؤوليّة الاختيار..

ذهبت مع جدّي.. في القلب حرقة، وفي العين دمعة أُحاول جاهدة أن أبقيها أسيرة الأهداب.. في الطريق إلى دمشق، لاحظ جدّي حزني ووجومي.. سأفتقد حكايا والدي: حكاية "أبو زهرة وأبو فروة".. حكاية "الزنجيّ سامبو".. سأفتقد حنانه الذي كان يوزّعه على الجميع دون أن ينضب، سأشتاق لوالدتي التي برغم حزمها كانت تحمل قلبًا مفعمًا بالحبّ.. إلى أختي الصغيرة بوجهها الملائكيّ الجميل، وشعرها الأشقر.. وإلى نجوى وشقاوتها المحبّبة.. وحتّى إلى الغرفة الصغيرة التي كانت تجمعنا مثل عشّ صغير.. سألني الجدّ:

- بعد فينا نرجع.. بتحبّي ترجعي؟
- بحبّ نعيش كلّنا سوا..

كان لا بدّ من الاختيار، وتابعت رحلة العودة إلى لبنان.. ولكنّني وجدت نفسي منذ تلك اللحظة، رِجلًا في شرقستان، ورِجلًا في غربستان، وهويّة ضائعة على "الحدود"!.

حورانيّة في لبنان

- يا أهلًا "بالحورانيّة "شلونك يا غالي؟"

قال خالي مرحّبًا وهو يحاول تقليد لهجة أبناء السويداء!

وصـــاحت خـالتي وهي تحـدّق إلى ثوبي القبيح الطويـل الـذي خـاطتـه والدتي بكثير من السرعة، وقليل من الإتقان:

- لابسة حوراني.. طالعة مثل "النوَريّة"!
- إن شاء الله ما تكوني مقمّلة!

قالتها الأخرى مازحة، ولم تكن تتصـــوّر أنّ شـــعر ابنة أختها يمكن أن يستضيف يومًا مخلوقات سيّئة السمعة كالقمل!

بالرغم من ترحيبهم الحارّ والصـادق، وجدت مزاحهم ثقيلًا وتعليقاتهم جارحة، وبدأت أشـــعر أنّني حورانيّة في بلد غريب مدانة بالتقميل، إلى أن يثبت العكس.. وعسى أن يثبت العكس!

تلك الليلة حاولت النوم فلم يغمض لي جفن.. ناديت "أبو طبيخ"، الهرّ الذي كان فيما مضـى يتبعـــني، ويتمسـح بي طول النهار، ويندسّ إلى جـانبي في الليـل، حـدّق بـذكاء وخبرة إلى عظـامي النـاتئـة، ووجهـــي الشـاحب، واسـتنتج أنّنـــي من قوم يقلّ عندهم الطبيخ.. فابتعد دون اكتراث..

خالاتي أمضـين الليل سـاهرات، محاولات لبننة الفسـاتين.. فأضـفن عليها تطريزًا جميلًا، ودانتيلا زاهية.. ولم تمض أيّام إلاّ وأصـبح عندي إضافة إلى الفساتين التي أُعيد تدويرها، فساتين جديدة، من كلّ شكل ولون!

استعدت مظهري اللبنانيّ، ولهجتي اللبنانيّة، واكتست عظامي ببعض الشحم واللّحم.. ولكنّ جذوري كانت قد نبتت في مكان آخر.. في ذلك المكان البعيد، حيث والدي ووالدتي وأختي الصغيرة.. هناك عندي انتماء ولست سوريّة حورانيّة في بلد غير بلدها..

بيت جدّي أحببته، وأمضيت فيه ثلاث سنوات، بعيدة عن والديّ المقيمين في بيروت.. هذا البيت الجميل النابض بالحياة في عين عنوب عشقته، وتركت أهلي من أجله، حيث الأرانب والصيصان والخروف، والعصافير الحرّة تتقافز على الأغصان.. وسفرة عامرة بكلّ ما لذّ وطاب.. والأهمّ جدّ وجدّة، وأخوال وخالات، وأقرباء يحملون قلوبًا مُترعة بالحبّ. اكتشفت بعد عودتي أنّه بيت جدّي وليس بيت أهلي، القرية الجميلة التي أبدع الخالق في تلوينها، ورشّها بالعطور، ليست بلدي.. شعرت كما لو كنت طفلة متبنّاة. عرفت الحقيقة..

عين عنوب قرية جميلة ولكنّني أصبحت أفتقد حسّ الانتماء!..

العودة إلى مدرسة الإنكليز

كان لا بدّ من تسجيلي في مدرسة الإنكليز.. وجاءت البشرى بأنّني سُجّلت في المدرسة! لم يكن الأمر سهلًا، فأقساط المدرسة كبيرة.. ومدّخرات الجدّة ذهبت ما بين "ناولون" لسفر خالي إلى إفريقيا، وبين أجور الأطبّاء وثمن الأدوية.. "الجنينة" افتقدت حبيبها، وأضربت عن العطاء. ولكن ما كانوا ليكسروا بخاطر الطفلة، وهي التي تركت أهلها وجاءت إلى عين عنوب.

عُدت إلى المدرسة، ركضت ملهوفة إلى مكتب "الرئيسة"، وكما حدث للتيتانيك، فقد اصطدمتُ بجبل جليديّ! رئيسة أخرى كانت تحتلّ الغرفة.. سيّدة عابسة متجهّمة، لها عينان بلون نصل سكّين رمادي.. وقفنا تحدّق إحدانا إلى الأخرى، ونقلتِ العيون ما لم يكن بحاجة لكلام..! رئيسة جديدة أصرّت على أن يُدفع قسط السنة كاملًا وفورًا.. وأصرّت على أن تجعل الإدارة مكانًا محرّمًا على الطفلة..

فقدتُ صديقتي الرئيسة السابقة وبكيت.. ودخلنا إلى الكنيسة حيث نجتمع للصلاة الصباحيّة، وأخذ التفقد، كان من المفروض أن أجيب بكلمة "present" عندما يذكرون اسمي، ولكنّني كنت قد اعتدت على الإجابة بكلمة نعم.. وما كدت أتلفّظ بكلمة عربيّة، حتّى زعقت بي الرئيسة:

- No Arabic.. You stupid

وصاح تلميذ وهو يقهقه ضاحكًا:

- She is Syrian from Hawran

ووجدت العيون تحدق إليّ.. بعضها بإشفاق بسبب هذه (الفضيحة!)، وبعضها بتشفٍّ، فقد كان يغيظهم اهتمام الرئيسة السابقة بالطفلة التي لم تكن سوى (سوريّة متنكّرة!).

كان وجود خالي وأولاد خالتي في المدرسة يشكّل لي درع حماية.. ولكن هل يمكن لكلّ ما في العالم من دروع أن تحميني من أسلحة العيون الساخرة؟

الطريق إلى المدرسة لم تكن أحسن حالًا.. في الماضي كنّا نخرج من البيت مجموعة متضاحكة صاخبة.. كان خالي وأولاد خالتي يحملونني عندما أتعب، مع أنّهم لم يكونوا يكبرونني كثيرًا.. المشوار على الدرج الصاعد إلى المدرسة كان نزهة لا أروع منها.. الزهور على جانبيّ الطريق.. وقناة الماء التي لا ينقطع خريرها صيفًا أو شتاءً.. ولكن أجمل ما في الطريق كان بيت "رتيبة"، فقد كانت تنتظر مرور الأطفال لتتسلّى بمراقبتهم، وتعبّر عن حبّها بالشتائم والسباب، فتحرّضهم على الإبداع في شقاوتهم، فما إن يصلون أمام بيتها حتى يبدأ الحداء:

"يا منذبحها لرتيبة.. يا منذبح.. بجاه العَلي من فوقنا".. ثم ينطلق صوت الرصاص من الأفواه جميعًا: طا طا طا طا!

كانت تسلية للفريقين، رتيبة تكسر رتابة يومها.. ونحن نصل إلى المدرسة مهلّلين وضاحكين..

أين رتيبة؟ افتقدنا شتائمها الودودة.. افتقدنا عيونها المُحبّة وهي تبدأ السجال.

وكأنّ الزهور على جانبي الدرج أصبحت ألوانًا دون روح.

ربّما.. ربّما كانت حزينة لمرض الجدّ..

في الليل رأيت جدّتي تتحرّك بخطوات قلقة سـريعة بين القنطرة وبين غرفة جدّي.. وشـممتُ رائحة ماء الزهر.. في النهار ماء الزهر يعني شـيئًا محبّبًا، ليمونادة أو حلويات لذيذة، أمّا في منتصـف الليل، فماء الزهر يعني إنعاشًـا لقلب معذّب تعب من الخفقان.. ماء الزهر يرسـم على خلفيّة الألم السـوداء لوحات بديعة، لزهرٍ أبيض، يفـترشُ أوراقًا من أخضر نابض بالحياة، يُزيّنه هنا وهناك برتقالات بلون دافئ كالشمس، تتشـبّث بالحياة فوق الأغصـان العالية.. يرسـم شـابّات يتسـلّقن الأغصـان بخفّة، ليجمعن تلك الأزهار زهرة زهرة، وتمرّ السـاعات، وتـدمى الأيـدي من وخز المزاليف الشـائكة، وتزوغ الأعين، والزهور صـغيرة والسـلّة فم لا يشـبع.. ولكنّ الإرادة تسـتمرّ طويلًا بعد أن ينهك الجسـد.. يرسـم أمّ نايف بوجهها الطافح بالصحّة والفرح والحبّ، وهي تضـع قبضـات من الزهر في الكركي، وتتمتم بأدعية وصـلوات.. ماء الزهر بالنسـبة لأمّ نايف دواء للجسـم والروح، فلا بدّ أن يكون من زهر أبيض ناصع مثل قلبها.. معافى كجسـدها.. غضٍّ كأيدي الصبايا اللواتي أمضـين النهار في جمعه.. ولابدّ أن تكون النار صـبورًا مع العطر، وأن تتركه لينسـكب قطرة قطرة، وفي كل قطرة حكاية جهد وصـبر وإيمان.. حكايـة أرواح مُترعـة بـالعطاء تتواصـل بلغـة الكون مع أرواح أخرى معـذّبـة.. تُعطيهـا أملًا.. حبًّـا.. جمـالًا.. رغبـة في الحيـاة.. فيعود القلـب ينبض من جديد.

هل كان اسـم ديوان والدي "لهيب وطيب" مُسـتوحىً من تقـطير جدّتي للطيوب؟.. من يدري..

الحكيم

يجيء الدكتور "الحكيم" لعيادة جدّي المريض.. يسير مفاخرًا مباهيًا، كأنّه يوزّع الأعمار والأقدار بحسب مشيئته.. يبادل جدّتي بضع جمل، ثم يقول بلهجة جافّة متعالية:

- أناااااااااا قلت ممنوع الحركة.. أناااااااااا قلت ممنوع الزعل.. أنا قلت ممنوع الزوّار.. أنا قلت ممنوع الكلام.. أناااااااااا قلت لا تستعملوا وصفاتكم القرويّة، الرجل مريض بالقلب وأنت تداوينه بماء الزهر وماء الورد!..

ومع كلّ أناااااااااا ينتفخ الطبيب، ويتقلّص المريض وأهل المريض، وتأتي رائحة أدوية الحكيم مثل نذير شؤم، لتطارد وتطرد شذا ماء الورد، وماء الزهر، وتعيد المريض إلى سوداويّة مرضه..

* * *

هل كانت تعليمات الحكيم "حكيمة"؟

كيف يمكن لجدّي أن يمتنع عن الحركة؟ حبيبته ورفيقة عمره "جنينة عين الطاحون" عطشى.. مهجورة.. ذليلة.. أغصانها منكّسة مثل يتيمة نسيها الناس.. فكيف يقتلعها من الفكر والذاكرة؟

كيف يُمنع الزعل؟ وهل الزعل ضيف مهذّب خجول يقرع الباب بلطف شديد مستأذنًا بالدخول؟

ممنوع الكلام؟ الكلام هو أكثر ما يحتاج إليه مريضك يا حكيم، يحتاج إلى أن يتكلّم معك.. أن يشـــرح لك علّته بكلّ تفاصـــيلها، أن يشـــعر باهتمامك وتواصـــلك وتفهّمك.. ولكنّك الحكيم الوحيد في المنطقة والمرضى عديدون.. الأوراق النقديّة المخبّأة في أعماق الصناديق كثيرة، وأنت ليس لديك الوقت "لطقّ الحنك" المجّانيّ..

* * *

كنتُ في الخامســـة لابدةً في الزاوية، أرقب ما يجري باهتمام وقلق، ضبطني الحكيم متلبّسة بجرم مخالفة أوامره، حدجني بنظرة استنكار وزعق، وإصبعه مصوبة نحوي مثل ماسورة بندقيّة:

- You.. Out.... أنا!!!! قلت ممنوع الزوّار..

ربّما تكون بارعًا أنت في وصـــف الأدوية يا حكيم.. ولكنّ جدّي ليس جســـدًا فقط، جدّي روح وعواطف.. شـــمس ومطر.. وهالة كونيّة لا تفهمها أنت.. جدّي عصـــفور حرّ حدوده المدى، وأنت تصـــلبه على قضبان قفص صغير، مرميًّا، وحيدًا في زاوية معتمة، محرومًا من كلّ ما يحبّه وكلّ من يحبّه.. ثمّ تقول له: "قاوم المرض..".

* * *

فتحت جدّتي الصـــندوق المطعّم، وبحثت في أعماقه عن ورقة نقديّة كـــبيرة، كانت تحتفظ بها مطويّة مرات ومرّات مثل تميمة، ناولتها للحكيم الذي قذفها إلى جيبه المنتفخ دون اكـــتراث.. ركب ســـيّارته وذهب..

بعد ذهاب الحكيم تساءل الجميع:

- ما كانت صحته أحسن قبل ما يجي الحكيم؟!

يبدو أنّ الحكيم كان ماهرًا في استخراج الأوراق النقديّة الكبيرة من مخابئها، أكثر من مهارته في استخراج العلل من المرضى!

مات جدّي نعيم..

بكَوا، ولم أبكِ.
حزنوا، ولم أحزن.
افتقدوه، ولم أفتقده.
نظروا إليّ بإشفاق، وقالوا: مسكينة صغيرة، ولا تفهم معنى الموت.
نظرتُ إليهم بإشفاق، وقلت: مساكين كبروا، وفقدوا قدرتهم على فهم معنى الموت..
بحثوا عن الشيخ نعيم بحواسّهم ولم يجدوه.
بحثت عنه بعين روحي.. ووجدته.
أصغيت إلى الصمت القادم من أعماق الكون وسمعته،
الشيخ نعيم لم يكن جسدًا يستضيف روحًا
كان روحًا تستضيفُ جسدًا
والروح لا تموت..

* * *

كما قطرة الماء في البحيرة التي مداها الأفق.. تتبخّر
تتحوّل إلى وجود شفّاف مُرتحل مع نسمة هواء
إلى غيمة تحمل أمطار الخير
إلى ندفة ثلج
إلى نسغ بتلة ورد
إلى جزء من شلال هادر
من محيط جبّار
تتمازج مع القطرات ولا تنتهي
ولا ينتهي الجدّ..

سهرات وقصائد..

عُدت أدراجي إلى السويداء.. استقبلني والدي بترحاب وحنان وشوق.. كان يمرّ مرور نسمة تحمل أريج الحياة، ولكنّها كانت تمرّ سريعًا، فقد تعلّم والدي من والده أنّ قدرهم أن يعيشوا للآخرين.. في الصباح هو في المدرسة الثانويّة التي يديرها، بعد الظهر يأتونه بهمومهم ومشكلاتهم، وما أكثرها.. في المساء يجتمع مع أصدقائه ليتناقشوا في أمور البلد والناس.. ولا بأس من جولة ليخة أو طرنيب بين حين وآخر، خصوصًا عندما يأتي أبو فيّاض! كانت المضافة واسعة، وباستطاعة الصغيرة أن تجلس إلى جانب الطاولة الوحيدة في البيت متظاهرة بالدراسة، بينما هي تستمع لأحاديثهم الشائقة.. الوالد كان يعلم أنّني كنت أستمتع بحضورهم، وكان سعيدًا بذلك.. أحيانًا عندما يكون هناك أحاديث في السياسة لا يجب أن يسمعها الصغار كان يقول لي بلطف.. "روحي يا سلمى نامي بتكوني تعبتِ من الدراسة"! وأفهم أنّ وجودي لم يعد مرغوبًا فيه، فأنسحب بكرامتي!.

كان أكثر ما يسعدني سماع صوت والدي المفعم بالعنفوان، والصدق، والوطنيّة، وهو يقرأ قصائده لأصدقائه..

آخر السهرة -ومهما يكن متعبًا- لا يحرمنا من قصّة جميلة قبل النوم، ونغفو على صوته الدافئ الذي يرسم في خيالنا المتأرجح بين اليقظة والنوم، قوس قزح من ألف لون ولون.. والدي كان يعلم أنّ انتقالي إلى السويداء لم يكن سهلًا.. ولكن ما العمل؟ هل كانت حياتهم أيّام الثورة سهلة:

كنَّا صغارًا يا بُنيَّ
نعيش في لهبِ المعامعْ
الجوُّ يُمطرنا لهيبًا
والبنادقُ والمدافعْ
كنّا نسمّيها الغزالةْ
ونقول أقبلتِ الغزالةُ
بين طيّات الغمامْ
وكأنّها طير الحمامْ
لم نرتجف يومًا
ونحن الصامدون
الظافرونْ
ولعلّكم لا ترجفون

* * *

السويداء كانت في ذلك الوقت مثل طائر الفينيق الذي ما يزال يتململ تحت الرماد.. الثوّار الذين ضحّوا بأولادهم وأموالهم أصبحوا فقراء منسيّين على الأرض التي حرّروها.. والذين خانوا البلد، وباعوه، وتاجروا بدم أبنائه، صاروا يملكون القصور البيض..

من ضيوف سهرات الوالد الدائمين كان أبو فيّاض.. وعندما يدخل يتوقّف الجميع عن الكلام، ويعلّق أحدهم:

- هاتوا الورق صار وقت الطرنيب.

يجيب آخر وعيناه مصوّبتان نحو أبو فيّاض:

- الله يجيرنا من "الليخة"!

يضـــــــحك أبو فيّاض متغابيًا.. فقبل أن يدخل، كان متواريًا تحت الشبّاك، ينصت إلى كلّ كلمة يقولونها.. أصبح الجميع يعرفونه، صار (ورقة محروقة)..

البالوص

- انتبهوا يَختي أمّ أكرم من أبو فيّاض.. هذا بالوص..

كان كلام جارتنا همسًا.. وعيناها تتلفّتان حولها بحذر..

- يعني شو بالوص؟

تساءلت والدتي..

- يعني داسوس..

- يعني شو داسوس؟

- يختي ولو.. بتعرفيش شو داسوس.. يعني "فَسَدي"..

كنّا أنا وبنت الجيران طفلتين تتظاهران باللعب، بينما انتصبت آذاننا كآذان أرانب برّيّة!

تساءلت ابنة الجيران بفضول:

- بالوص.. داسوس.. فَسدَي.. شو يعني؟

انتبهت أمّ حسين إلى أنّ الصغيرتين كانتا تنصتان إلى الحديث، فصاحت بنا برعب:

- شو عبتعملوا هون يا مقاريد.. روحوا انقلعوا العبوا برّا.

زاد فضولنا، فخالتي أمّ حسين كانت عادة تستعمل في كلامها مع إحدانا: "يا حشيشة قلبي.. يا قبّارة عظامي.. يا بصبوص عيني"، لكن يبدو أنّ مجرّد ذكر هذه الكلمات مسخنا إلى مقاريد.

أيّام مرّت ونحن نستفسر عن معاني هذه الكلمات، ولكنّ الصغار لم يعرفوا، والكبار كانوا يعطوننا إجابات تشبه الإجابات التي يعطونها للطفل، عندما يطرح أسئلته الفضوليّة، حول قدومه إلى هذا العالم، فيبتسم الكبار مُباهين بأنّهم نجحوا في تفسير ما لا يُفسّر.. ويبتسم الأطفال ساخرين من سذاجة الكبار!

حاولنا أن نعتمد على أنفسنا: "فَسدَي" هي على وزن "رصدي"، والرصدي هي تلك التي يخيفون بها الأطفال.. فهل "الفسدي" هو لإخافة الكبار؟

كان لا بدّ من مراقبة أبو فيّاض لمعرفة المعلومات، وبدأنا أنا وابنة الجيران نجمع ونتبادل المعلومات.. وسيأتي يوم نكتشف فيه معنى البالوص!..

داسوس.. فسدي.. بالوص..

الداسوس أو الفسديّ هو الجاسوس الذي يتجسّس على الثوّار، وينقل تحرّكاتهم إلى قوّات الاحتلال الفرنسيّ.. والبالوص هو المتعاون مع "البوليس" الفرنسيّ.. الفرنسيّون عيّنوا لكلّ عائلة بالوصًا..

وجاء من يعيد لهم "الاعتبار" والانتشار، وأطلق شعار: لكلّ مواطن.. بالوص!

خاصّة إذا كان هذا المواطن هو سلامة عبيد!.

أجلّك الله.. حُرمة!

- شــه شــه شــه أُســتاذ.. بتخلّي حرمتك تمشــي مع جنبك.. أبيصــرش أُســتاذ.. حرمتك لازم تمشــي وراك.. منشــان قيمتك أســتاذ.. أني بدّي مصلحتك.. بدّي الناس ما تحكي عليك أُستاذ!

كنّا عائدين من بيت الخالة أمّ ملحم أســرة ســعيدة.. أنا في الخامســة.. أختي تصــغرني بثلاث ســنوات.. وأمّي حامل.. برز أمامنا أبو فيّاض، وكأنّه شــيطان قذفته أعماق الجحيم! ادّعى أنّه التقى بنا مصــادفة، ولكنّ الجميع كان يعرف أنّه ينقل تقارير كاملة عن تحرّكات الأســتاذ.. ولا يكتفي بذلك بل يحاول خلق مشــكلات تشــغله عن العمل النضــاليّ والإنسانيّ.. وهل من طريقة أفضل من ضرب أسافين بينه وبين زوجته!

- باباااا.. احملنييييي.. تعبت..

تقول أختي الصغيرة وهي ترفع ذراعيها نحوه..

- بتحمل الزغيرة إنت أُســتاذ؟ وحرمتك بتحمل جزدانها وبتمشــي مع جنبك سِــتْ؟ ليش عتّال بيت أبوها إنت؟.. أبيصــرش أُســتاذ! الحرمة، بلا أمرٍ عليك وإنت ســيد العارفين، لازم ترقعها الصــبح قتلة والمســا قتلتين.. هذول ما بيجوش غير بالضرب وتكسير الراس أُستاذ!

تحسّ أختــي بالقلب الأسود خلف الوجه الضاحك.. للأطفال قدرتهم على الاستشعار!

- أنا لأ حبّك.. إنت "كخ"..

والدي يحملها.. يرندح لها أغنية طفوليّة..

- اسمعْ مني أعجب قصّة وسط الغابة نهر جارِ..

وتكمل أختي وهي تحرّك أصابعها الصغيرة:

- فهنا شجغة.. وهنا شجغة.. وهنا ثالثة الأشجاغِ

يرتفع صوت الغناء أشارك أنا أيضًا.. أبو فيّاض يخرج من المشهد.. طفليّ كريه دخيل على الحبّ والفرح.. يتجاهل الأستاذ كلام أبوفيّاض، يحاول أن يتخّلص من إزعاجه، ولكنّ أبو فياض يستمرّ:

- هذول النسوان جنس نمرود أُستاذ.. بكرا يمكن يصيروا بدهن يتوظّفو كمان.. ومش بعيد تصير الحرمة أجلّك الله بدها تعمل قاضي هه هه هه.. أو شرطي.. هههه!

في الليل يستعيد أبو فيّاض أحداث النهار. الأب الذي يغنّي مع ابنته.. ينظر بحقد إلى أولاده.. يُدرك أنّهم يكرهونه ويحتقرونه.. زوجته تعتبر الزواج منه غلطة حياتها.. حتّى أمّه كانت تفضّل أخوته عليه.. الفرنسيّون هم الذين اكتشفوا مواهبه.. درّبوه على التجسّس على الثوّار. أصبح "بيذبح بظفره"، ولكنّه بعد الاستقلال عاد منبوذًا مثل مريض الجذام.. إلى أن أعاد له هذا الرئيس مجده وكلّفه بهذه المهمّة. الأستاذ محترم ومحبوب، مهذّب وخلوق.. صفات تجعل أبو فيّاض يشعر بالضآلة والصغار.. يغمس أبو فيّاض قلمه بحبر قلبه الأسود، وباستمتاع شديد يبدأ بتدبيج تقرير، فيه من الحقيقة شيء، ومن الحقد والكيد أشياء وأشياء.

إن كان صْبيّا يا نيّالي.. إن كنّو بنيّة راحت عليّا!

برنامجي الصباحيّ في السويداء كان يبدأ بالنفير العسكريّ: تاتاتا تاتاتا تاتا تاتاتا

فالقلعة تقع قبالة بيتنا والصوت يصل إلينا عاليًا مجلجلًا..

في عين عنوب كان يومي يبدأ بصوت خالتي وهي تقول بصوت موسيقيّ رخيم:

- الفراشات فاقووو.. والعصافير فاقووو.. والصيصان فاقووو.. والوردات فاقووو

وأفيق من النوم على أجنحة فراشات، وبتلات ورود..

هنا يبدأ الصباح بالنفير العسكريّ، ثمّ يأتي صوت والدتي أكثر عسكرةً من نفير العسكر!

- قومي عالمدرسة تأخّرتِ..

تأتي العبارة جافّة مسطّحة دون ملامح.. وتأتي الواو قصيرة حازمة، وأنا معتادة على الواوات الموسيقيّة الممدودة، مثل موّال أبو الزلف!

- روحي غسّلي وجهك، وتعي لمشّط لك شعرك..

علقتِ يا سلمى!

كانت خالتي تمشّط لي شعري على مهل وهي تدندن:

يا بير يا بربير.. زيّنها بجداديل الحرير

كلّ ما انقطعت جدّولة.. يزيدوا ميّة وأربعين!

يأتي تمشيط الشعر عند خالتي فرحًا ودلعًا و"هرقة"، عند والدتي هي مهمّة عسكريّة، يجب تنفيذها بسرعة، وجدّيّة، ودون هرقة..!

- تَعي كلي..
- خبز وحليب؟.. كل يوم خبز وحليب؟ بدّيش!
- البسي مريولك.
- مريول أسود بطلع مثل العنزة.. بدّيش!

كلّ يوم كنت أقول "بدّيش"، ولكنّني كنت أعرف أن بدّيش عند الخالة تفتح بابًا للحوار والمفاوضات، أو على الأقلّ بعض الدلع، أو بعض الإقناع، أمّا عند الوالدة فلها معنى وحيد: "بدّك غصب عنّك"!

والدتي لم تكن فاقدة للفرح والمرح والحنان، ولكنّها كانت تحمل أكثر من طاقتها، همومًا، وشجونًا، ومسؤوليّات.. كانت بعيدة عن بلدها وأهلها.. تحنّ إلى أيّام بعيدة.. مدرسة الإنكليز وحفلاتها المدرسيّة، حيث كانت تقوم بالأدوار الرئيسيّة في المسرحيّات، وتُلقي الشعر، وتُشارك بالغناء بصوتها الجميل.. تحنّ إلى أهلها وجيرانها.. تحنّ إلى بلدة جميلة، وطعام شهيّ، وراتب لا يتبخّر قبل الوصول إلى البيت!

في تلك الفترة لم يكن لديها الوقت، ولا المزاج للاستمتاع بالأمومة.. خاصّة أنّها تعاني من متاعب الحمل.. ربّما تتخلّص من النّحس الذي لازمها مرّتين متواليتين، فيبتسم لها الحظّ، وتضيف إلى اسمها اسمًا مذكّرًا، يعطيه هيبة، وقيمة ووقارًا، بدلًا من "أمّ سلمى" اسم تحمله منذ سنوات ستّ مثل صليب المسيح!

لم يكن ذنبها فمنذ أن ولدت وهي تسمع:

صْبيّا.. بْنيّة.. صبيا.. بنيّة.. إن كان صبيًّا يا نيالي. إن كنّو بنيّة راحت عليّا!

غريبة تبكي دما..

ضاق صدري من شجوني.. كيف لا أبكي دما..
كانت والدتي كـــثيرًا ما تُغنّـــي بصـوت شـجيّ حزين مقاطع من إحدى المسـرحيّات الـــتي قامت ببطولتها على مسـرح المدرسـة، كانت حنطيّة اللون، لها قوام رشـيق، وملامح جميلة، وعينان سـوداوان آسـرتان.. بحسب المعايير الأجنبيّة التي انتقلت إلى لبنان من الغرب، كانت والدتي جميلـة الجميلات، ولكنّ المعـايير في ذلـك الوقـت في السـويـداء كانـت مختلفـة.. فـالحرمـة مثـل "النعجـة المعلوفـة" كلّمـا ازداد وزنهـا ازدادت قيمتها، ويأتي اللون الأبيض الناصع ليُعزّز هذه القيمة!
إضـــافة إلى جاذبيتها، كانت والدتي متفوّقة في دراســتها، وخاصّــة في اللغتين الإنكليزيّة، والفرنسـيّة.. في الحفلات المدرسـيّة كانت تأخذ أدوار البطولة، وتُلهب أكفّ الحاضرين بالتصفيق، وفي المشاوير والرحلات، كانت هي المرحة خفيفة الظلّ الـــتي تجعل للرحلة طعمًا ونكهة.. في البيت كان جدّي يُسـمّيها "بركة البيت"، فقد أبدت براعة غير عاديّة في إدارة ميزانيّة الأســرة، وفي تحســين دخلها.. وفوق ذلك هي من ســلالة الأمراء اللمعيّين الذين تكنّوا باســم قائدبيه، نســبة إلى الأمير القائد إسـماعيل أبي اللمع.. ومع أنّ قسـمًا كبيرًا من أمراء أبي اللمع تحوّلوا إلى المسـيحيّة عن قناعة، أو لأسـباب فرضتها الظروف، فإنّ المنحدرين من سـلالة الأمـــير إسـماعيل أبي اللمع، بقُوا على دين التوحيد، وأصبحوا من الفقهـاء الـدينيّين البعيـدين عن الطـائفيّـة والتزمُّت، وكانـت لهم مكانتهم الدينيّة والاجتماعيّة..

عندما جاءهم والدي خاطبًا استبعدوا الفكرة كثيرًا، برغم حبّهم الشديد للعريس.. جدّي لم يتصوّر أن تبتعد ابنته الحبيبة عنهم. جدّتي كانت تعلم من أختها أمّ ملحم زوجة الشيخ حمد الفقيه أنّ أفراد أسرة العريس هم من الذين "يتزوّجون النضال"، وتصبح الأسرة بالنسبة لهم في المقام الثاني!

اشترطوا على العريس أن يبقى في لبنان، إذا أراد أن يتزوّج ابنتهم.. ولكنّ والدي بقي مصرًّا على الزواج من حبيبة القلب، وأكثر إصرارًا على التمسك بعودته إلى بلده.. هل كان للقصائد الرائعة التي كتبها دور في تليين قلب الشابّة؟ أم أنّ القصائد كانت لملهمة أخرى..؟

لست أدري

لست أدري..
حبّذا لو كنت أدري
أيُّ شيء فيك لا يسبي ويغري..
قدُّك الممشوق يا أخت الربابِ
أم صفاءُ اللون أم بُرد الشباب
أم لذاذات الحديث المستطاب؟
والحيا يرسو على الخدّ ويجري
في قلوع من خيوط الفجر حمرِ
أي سحرٍ لم يفض من مقلتيك؟
أي خمرٍ لم تجل في شفتيكِ؟
عبثا يطمع في السكرة ثغري
وفؤادي مغلق عن كل سُكرِ
كل ما في الكون حلوٌ يا أخية
كل وجهٍ فيه أسرار خفيّة
تغمر الروح بأحلام ندية..
غير أني واجدٌ فيك لعمري
كل آمالي وأحلامي وشعري
ذاك لغزٌ، هل أرى للّغز حلّا
فلقد يشفي إذا وُفقّتُ غلّا
وجم اللب وقال القلب كلّا
من ترى يدرك غيري كنهَ أمري
لست أدري.. حبذا لو كنت أدري..

(1940)

هل تهدأ العاصفة؟

كانوا يتســـاقطون شـــهداء القنابل التي كانت تُمطرهم بها الطائرات الفرنســـيّـة.. وشـــهـداء الجوع والعطش والقيظ في صـحراء النَبَـك السـعوديّة.. مجاهدون رفضـوا عرض فرنسـا قصـورًا في سـويسـرا، وحسابات خياليّة في بنوكها.. واختاروا الوطن.. سلامة عبيد كان واحدًا من أطفال صحراء النَبَك الذين آمنوا بمستقبل مشرق لهذا الوطن..

غدًا في غد تهدأ العاصفةْ
وتبسم جنّتنا الوارفـةْ
ويُنشد في غصنه العندليبْ
ويهدأ هذا الزئير الرهيب

* * *

غدًا تتلاشى السحاب الجهامْ
وينزاح هذا الظلام، الظلام
ويطوى الحديد على نفسه
وينتحر السوط من يأسه

* * *

غدًا تشرق الشمس في أرضنا
وفيها اشتياقٌ إلى روضنا
فتلقى هزارًا مهيض الجناحْ
وغصنًا حطيمًا بكفّ الرياح
وغصنًا تطاول بين السحاب
تُثرثر فيه بنات الغراب

* * *

ولكن، غدًا تهدأ العاصفةْ
وتبسم جنّتنا الــوارفةْ
وتبرا الجراحْ
وتهدا الرياح
وينشد في غصنه العندليبْ
ويذهب هذا الزئير الرهيب
مع العاصفةْ..

أبو ســلمى كان في وطنه وبين أهله، وأمّ ســلمى هي الآن في الســويداء، تشــتاق لأهلها.. لضــيعتها.. لحياتها الجميلة في لبنان. هي الآن وحيدة غريبة، وراتب الأســتاذ تتخاطفه الأيدي قبل الوصــول إلى البيت، ولا يبقى لأولادها إلاّ بضع لــيرات، لا تكاد تكفيهم طعامًا.. استغنت الوالدة عن شــراء الملابس الجديدة.. ولم تُرســل ابنتها إلى مدرســة الراهبات الخاصّة، لعدم توفّر مبلغ كاف لتسديد القسط.. استغنت عن شراء أيّ شيء للبيت إلاّ ما هو ضروريّ جدًا..

تخيَّلتْ حالها لو بقيت في لبنان.. زوجها مدرس في الجامعة.. تســكن في شــقّة أنيقة.. عندهم سـيّارة.. أولادها يذهبون إلى أفضـل المدارس.. يوم العطلة يُمضونه في عين عنوب أوعلى شاطئ البحر.. أو في الأسواق التي تعــجّ بكلّ ما هو جميل، وتتخيّل أيضًا أنّها أكملت دراستها، وأصبحت تحمل شــهادة عالية مثل زوجها.. ولكنّ قرار الزوج بالعودة لم يكن قابلًا للنقاش.. فهو الذي قال:

يا بلادي

أنا إنْ لم أطلبِ العيش عزيزًا في ربوعك
فالردى أشهى وأولى من هجوعي وهجوعك
أيُّ شيء فيك يرضى ما رضينا
ويلاقي صولة الجور ذليلًا مستكينا
ويطيق الأسر والإرهاق والقيد سنينا؟!

* * *

أنِفَتْ هذي الروابي الشمُّ أن ترضى الهوانا
فتسامت في الفضاء الرحب تُذكي العنفوانا
لم تُمكِّن من ذرا هاماتها شعبًا سوانا
والبراري تسرح الغزلان فيها والظباء
ويرفّ الطير نشوانَ ويلهو ما يشاء
أسكرته النسمة البكر وأغرته السماء

* * *

والأزاهير كساها الطلّ سحرًا وجمالا
فتثنّت تملأ الوادي عبيرًا ودلالا
وجرى النهر على أقدامها عذباً زلالا..

* * *

كلُّ ما في أرضنا يأنف أسرا
ويريد العيش في دنياه حرّا
فلماذا نقبل الضيم وطعم العيش مرّا؟!

يا بلادي
لَنْ تكونَ الطير والغزلان أسمى من بنيكِ
سنلاقي الموت أو نحيا أباة الضّيم فيك
يا بلادي

(1943)

أمّ سلمى تعلم تمامًا أنّه ما من شيء قادر على اقتلاع هذا الشاعر من جذوره في السويداء، ولا هي تقبل أن تحرفه عن مساره.. إنّها تتفهّم كلّ ذلك، ولكن يعزّ عليها أن تشاهد ابنتيها محرومتين من حياة رغيدة، كان يمكن أن تعيشاها في لبنان.. يزداد بكاؤها المكتوم عندما تتذكّر فرح ابنتها بمجلّة جميلة ملوّنة، على زاوية غلافها ولد يلبس عمامة، ويحمل ناظورًا طويلًا بعين واحدة، وإلى جانب الصورة: سندباد مجلّة الأولاد في كلّ البلاد.. قرأتها الطفلة مرّات ومرّات، وكأنّها كانت متعطّشة للكلمة المطبوعة..

وتأمّلت صورها الملوّنة ساعات، فقد افتقدت الألوان بعد مجيئها إلى بلدة ليس فيها إلاّ صخور سوداء، وتراب أغبر.. وقرأت الصغيرة عن بطل القصّة الذي كان في قارب صغير، يحاول تحاشي الاصطدام بالصخور، ويسمع من بعيد صوت شلاّل هادر، وقد كتبوا في نهاية القصّة المصوّرة: (البقيّة في العدد القادم).. عاشت الطفلة أسبوعًا تنتظر يوم الثلاثاء، ولا حديث لها سوى المجلّة.. ولكن ثلاثاء ذهبت وتلتها ثلاثاء، ولم يكن يبقى في جيب الأستاذ ما يشتري به المجلّة..

وحتّى الراديو الذي بدأ يُسلّي الصغيرة، أصبح محرمًا، بعد أن اشتكت صاحبة البيت، من أنّ فاتورة الكهرباء كبيرة.. وسلمى تشغّل الراديو طول النهار على الفاضي.. الساعة مشتركة، والفاتورة يدفعها صاحب البيت.. فلتبحث سلمى عن تسلية أقلّ تكلفة!.

ناموا ولا تستيقظوا.. ما فاز إلا النوَّم

كان هذا هو الشعار الذي ترفعه مدرسة الزهراء! ولكنْ "للسبات المدرسيّ" أصول؛ يجب أن ينام الطالب وعيناه مفتوحتان، ويداه مكتّفتان فوق صدره.. قد يُزعجه صوت المعلّمة في البداية، ثمّ يتعوّد على هذا الضجيج، بل ربّما تساعده رتابة صوتها على النوم.. وكلّما نجحت المعلمة بمعالجة أيّ حالة "أرق طارئة" في صفّها، كان ذلك دليلًا على موهبتها الفريدة!

- تعالي نمصع من المدرسة..

اقترحت نجوى..

- يعني نعمل حالنا مرضانين؟
- ولك لأ يا ماليت السمّ.. إذا قلتِ إنّك مريضة يمكن يعطوكي شربة زيت خروع.

كان زيت الخروع في ذلك الوقت هو الدواء العجيب والوحيد لكلّ الأمراض، وخاصّة الأمراض الصباحيّة المفاجئة التي يُعاني منها تلاميذ المدارس، فما إن يذكر اسم زيت الخروع بطعمه المقرف، حتّى يكون التلميذ قد سابق الريح إلى مدرسته سليمًا معافى!

شرحت نجوى فكرتها:

- منعمل حالنا رايحين على المدرسة ومنهرب..

لاحظت تردّدي فقالت:

- ولي باخذك على حاكورة الشوفانيّة..

حاكورة الشوفانيّة.. جميع من في المدرسة يعرفها، فالشوفانيّة تسكن قريبًا من مدرسة الزهراء، وكنّا كلّما رأينا ورودًا جميلة مع العنزات الصغيرات، علمنا أنّه قد حصلت غارة على حاكورة الشوفانيّة.. الذين غزوها أو تفرّجوا عليها يضيفون إليها ما يجود به خيالهم، وهو "جواد"! وكأنّه لم يكن يكفيني ما أسمعه في المدرسة، فعندما عادت والدتي من زيارتها، لاحظتُ لمعة فرح في عينيها، لم ألحظها منذ زمن.. كانت تتكلّم عن الستّ أم حسّان، وحديقتها الجميلة، وأنّها كانت تحضر الورود من لبنان، وتزرعها في حديقتها.. لا بدّ أنّ الشوفانيّة هي الستّ أمّ حسّان..

ضيعة والدتي عين عنوب، كانت تشبه باقة ورد عملاقة، وكانت البيوت تتبارى في تزيين السطيحات، بكلّ ما هو جميل. هنا في السويداء كانت المياه شحيحة، ولم أشاهد سوى بضع نباتات شوكيّة عجفاء، تنظر إلينا بلؤم وعداوة.. عطشتُ إلى ابتسامات الورود والزنابق.. عطشتُ إلى اللون الأخضر، وكانت حاكورة الشوفانيّة هي النبع.. نجوى عرفت نقطة ضعفي.. وأقنعتني أن "نمصع".. ونذهب لنتفرّج على حاكورة الشوفانيّة..

- تعالي منتزل على الوادي ومنعربش لفوق..

كان الوادي مسيل ماء جفّ مع نهاية الصيف، وأصبح مكبًّا للقمامة.. لم يكن في ذلك الوقت زبّالون ولا زبالة.. فكلّ شيء كان يستخدم، ويُعاد استخدامه، إلى أن يتقاسمه الهواء والتراب.. كلّ ما هو قابل للأكل يُباد إبادة تامة، وما لا يستطيع الإنسان ابتلاعه، تتكفّل به الدجاجات، أو العنزات. الثياب القليلة تُلبس إلى أن تهترئ تمامًا، ولا ترمى، إنّما يُحتفظ بها إلى حين تتحوّل إلى فجّة أو طرّاحة.. أمّا ريش الدجاج، إن

وجد، فقد كان يعرض بحرص شـديد عند باب المـــنزل، للتباهي أمام الزوّار والجـــيران.. كانت القمامة المنتشــرة في الوادي عبارة عن قطع قليلة مُتناثرة من الزجاج، أو الفخّار، منشـل ماء قديم وصـدئ، شـيء مهترئ ومقوّس، يبدو أنّه كان في يوم ما فردة حذاء!.

كان هناك عينان تُراقبان من بعيد، فوجودنا في ذلك المكان والزمان بدا مشبوهًا.. اقترب منّا متسلّلًا ونبح بصوت مستكشف: عاو

خفت وهربتُ، ولعلّه أحسّ بنشـوة التفوّق والانتصـار، وتخيّل نفسـه سـبعًا تخافه البلاد والعباد، فنفش ذيله، وأخذ ينبح بصـوت الذليل الذي وجد نفسه في موقع قوّة:

- عاو عاو عاو عاو

قذفته نجوى بحجر، وصاحت به:

- انقبر

أدرك أنّه ليس سوى كلب ضعيف أجرب، فارتخى ذيله وابتعد راكضًا.. وعندما أصبح بعيدًا عن مرمى الأحجار عاد ينبح: عاو عاو عاو

ما هذا المشوار؟؟

فـترت حماستي، خصوصًا أنّ الطريق كانت وعرة، ومغطّاة بالأشواك.. والمخلّفات الآدميّة والحيوانيّة متناثرة على الأرض.

- بدّي إرجع على البيت.. ما عَشْ بدّي اتفرّج على حواكير..

شـدّتني من يدي، وقالت طيّب تعالي معي.. تخافيش تعالي.. صـعدنا إلى الشـــارع العـامّ، ومقـابـل بيـت المحـافظ، دخلنـا في ممرّ طويـل، وفي آخره بوابـة.. دقَّـت على البـاب بثقـة، وعنـدمـا فُتح البـاب، أطلّـت سيّدة رقيقة مثل فراشـة.. كان للهجتها تلك النداوة الـــتي اعتدت عليها في عين عنوب..

- صَبْحِك بالخير خالتي.. من معروفك فينا نتفرج عالحاكورة؟

- إنتو مين يا زغار؟

نجوى لم تعرِّف عن نفسها ولكنها أشارت إلي قائلة:

- هذي سلمى بنت الإستاذ سلامي..

أشرق وجهها، وأجابت بترحيب صادق:

- أهلا وسهلا، فوتو العبو مع نهى..

كم رغبت في تلك اللحظة أن أدخل.. أن أتفرّج على "حاكورتها"، وأرتوي من اللون الأخضر.. أن ألعب مع صغيرتها اللطيفة.. أن أسمع تغريدة صوتها المحبّب..

ولكن..

نجوى قالت لها إنّني ابنة الأستاذ سلامة، وابنة الأستاذ لا تمصع من المدرسة.. لا تذهب إلى بيوت الناس متسوّلة نظرة إلى الحاكورة.. كنت بمريولي الأسود عنزة.. واحدة من قطيع. ويحقّ للعنزة أن تفعل ما يفعله القطيع.. بكلمة من نجوى لم أعد عنزة مجهولة.. أصبحت ابنة الأستاذ..

لم تفهم نجوى لماذا ركضت عائدة دون أن أرى الحاكورة.. كانت تشدّني قائلة:

- ولك تعالي.. قالتلنا تفضّلو.. ولك الشوفانيّة مليحة بتضربش وبتسبّش، تعالي..

ولكنّني كنت أجري باتّجاه البيت، لأنّنا لو ذهبنا إلى المدرسة متأخّرتين يمكن "يدهنولنا ذنينا بلبن ويحبسونا ببيت الفيران"!

روت نجوى كذبة محكمة عمّا جرى، ولم تنسَ أن توصي والدتي بي خيرًا.

- سلمى مرضت بالمدرسة وأني جيت وصّلها.. خالتي.. خالتي.. يا حرام سلمى مريضة كثير.. عَطيها شربة زيت خروع!

الناعورة

- عيريني ياها لبكرا بسّ!

أعير الناعورة؟ أسبوع ووالدي يعمل فيصنعها.. يأتي من المدرسة متعبًا مرهقًا، وبدل أن ينام بعد الظهر، يقضي وقت راحته في صنع الناعورة..

بدأ التصميم على الورق.. جرّبه على الكرتون.. عدّله.. غيّره.. ناقشني به.. ثمّ ذهبنا حاملين مجسّم الناعورة إلى حيث يصنعون مناشل الماء.. شرح الفكرة لصاحب المحلّ مرّة واثنتين فلم يفهم.. قام بالعمل بنفسه، قصّ التنك، جرح إصبعه ولم يهتمّ، المهمّ أن ينفّذ مشروع الناعورة.. بعد ساعات عدنا بها.. إصبعًا تقطر دمًا.. وقلبين فرحين بالناعورة..

أخذناها وذهبنا إلى الوادي، وضعناها على شلاّل صغير، تحرّكت بتثاقل في البداية ثم بدأت تدور.. عرفت أوّل فرح حقيقيّ منذ عدت إلى السويداء من لبنان، وأصبح اللّعب بالناعورة شغلي الشاغل، خصوصًا إذا وجد الوالد وقتًا لمرافقتي..

الآن جاء هذا الطفل الذي يصغرني بقليل يريد أن يستعيرها..

كان مصرًّا على أن يستعير الناعورة، ولا شيء غيرها.. أغريته بمجلّة سندباد.. بكتاب سامبو.. بسيّارة صغيرة حمراء جميلة.. لكنّه لم يكن يريد غيرها، خاصّة بعد أن رويت له قصّتها..

* * *

لم أســتطع التفريط بالناعورة.. إصــبع والدي لا تزال مضــمّدة، دم والدي لا أزال أتخيّله على الناعورة..

هـدّدني الطفـل بـأن يضـــاربني بحجـارة الجمش.. حلّفني بـأولياء الله الصالحين.. حاول بكلّ طاقته إقناعي.. دون جدوى..

بدأ يبكي بحرقة، احمرّت عيناه، وبدأ صدره يعلو ويهبط..

- إنتي بيّـك بيكتبلـك قصـــايـد.. بيحكيلـك حكـايـا.. بيـاخـذك مشـــاوير.. بيجيب لك هدايا.. بيجرح إصــبعو منشـــان يعمل لك ناعورة.. أني بيّي بيضربني وبيشقّع لي، وما بيجيبّ لي شي.. إنت عندك أحســن بَي بالعالم، وأنا عندي (أقمط) بَي.. وبتســتكثري تعيرينـــي الناعورة؟ بكرا الله بيحرقك وبيذرّي رمادك على السطح..

لم يُقنعني تهديده.. ولكنّني ضعفت أمام دموعه..

- خذها لبكرا بسّ..

أخذها وذهب، وقفت أعلى التلّة أنظر إليه يبتعد والناعورة في يده.. وصل أسفل التلّة ثمّ عاد راكضًا.. تسارعت دقّات قلبي بفرح، لا بدّ أنّه قادم لإعادة الناعورة.. أو أنّ أهله طلبوا منه إعادتها..

وقف على مسافة قريبة وصاح بصوت ممطوط:

- ضحكت علييييييييكي وشلحتك يااااااااااها..

مدّ لسانه، وانطلق راكضًا..

لم يُعِد النـاعورة.. وأهلـه لم يطلبوا إليـه إعـادتهـا.. ربّمـا كانوا جميعًا شديدي الحرص على ألاّ أُحرق، ويُذرّى رمادي على السطح!

* * *

أكـــثر من ستّين عامًا مضت، وقصّة الناعورة تُشعرني بالألم، وخيبة الأمل.. كنت أشعر بنفسي ضحيّة لطفل خبيث وناكر للجميل..
لكنّني أصبحت أكـــثر تفهمًا.. لم يكن هو الذي آذاني.. كنت أنا الـــتي سبّبت له الأذى، دون قصد منّي.. كنت في فورة حماستي للتحدّث عن والدي، لم أنتبه إلى ما يُســبّبه له ذلك من إحســـاس بالقهر والظلم.. شـــعور لم يســـتطع احتماله بمفرده، وكان لا بدّ من تحميلي بعضـــه.. أفهمه الآن وأسامحه.. وعسى أن يسامحني هو أيضًا.

الليلة الشباب جايين يسهرو عنّا!

وتشعر الطفلة بفرحة عارمة.. كانت تجلس في زاوية المضافة البعيدة متظاهرة بكتابة وظائفها على الطاولة الوحيدة، وتصغي بكلّ كيانها إلى ما كانوا يقولونه.. لم تكن تفهم كلّ ما يقال، ولكنّها كانت تستشعر تلك المحبّة التي تجمعهم.. وحبّهم الأكبر للوطن.. كانت تستمع إلى أحاديثهم جادّة أحيانًا، ومازحة أحيانًا أخرى، وأكثر ما كانت تنتظره بشوق هو عندما يبدأ الأستاذ قراءة شعره للأصدقاء.. وكان الأستاذ يلاحظ أنّ الطفلة الجالسة بهدوء في الزاوية، تتابع بكل شغف الكلمة الجميلة الصادقة والإلقاء المؤثّر..

في قصيدة "أبو رمّانة"، كانت تتخيّل فلاّحًا فقيرًا يستعيد مع ابنته الصغيرة ذكريات طفولتها البائسة، وتشكر الله على أنّها عاشت في عين عنوب وليس في "أبو رمّانة".. ولم تتسبّب في حرق أشعار والدها!!!

"ذكرتِ الأمس يا بِنْتي فماذا كان في أمسِ؟
أما عضّك ناب الجوع، والحرمان واليأس؟
فبعنا ما تبقّى من طيور القنّ للجارِ،
ومسّحتُ الدموعّ الحمر في عينيك يا بِنْتي،
لأنّا لم نعد نلقى لنا في بيتنا حبًّا..
أما أدمت سياطُ الريح وردَ الخدّ، والبردُ
وعاد المعطف البالي على جنبيك ينقدّ
فأشعلنا لك الموقد من كرّاس أشعاري
ومن أخشاب صندوق، تلاشت خلفه ذكرى

من المـاضــي ورثنـاهـا كمـا ينتثر العطرُ...

ذكرتِ الأمس يا بِنْتــي فماذا كان فــي أمسِ؟
جــراحــاتٌ و أشـــلاء وعــهــدٌ قــاتــمٌ مــرُّ
وخلف الظلمة الخرســاء طيفُ الموت يجـــتر
وكنّـا فـــي ظلال الخوف نبنـــي من بقـايـانـا
ومن أكبـادنـا، هـذي القصــور البيض للنـاس
ومن عُرِيـكِ يـا بنتـــي فرشـــنـاهـا لهم خزّا
ومـــن عــينٍ جفـــاها النـوم أنــوارًا زرعنـــاهـا
نـعـم، هـذي الـقـصــور مـن أكـبـادنـا تُـبـنـــى
فـلـن نـبـقـى كـمـا كـنّـا عـبـيـد الـذلّ والـجـوعِ

كان يعلم أنّ تلك الطفلة لا يستهويها اللّعب مع الأطفال، ولا الجلوس مع النســاء، كانت تحبّ صحبته وصحبة أصدقائه، وحرص على أن يبقيها إلى جانبه، كلّما سنحت الفرصة..
في زياراته للقرى كانت الطفلة رفيقته الدائمة، برغم استهجان الكثيرين لاصطحابه هذه الصغيرة في جولاته.. تتذكّر عندما زاروا بلدة عرى، وشاهدت طائرًا جميلًا ينفش ذيله، فتعكس الشمس عليه ألوانًا بديعة، وعرفت أن اسم هذا الطائر هو الطاووس، وأنّ هذا المكان هو بستان الأمير حسن الأطرش، وأنّه في هذا البستان كانت تتمشّى أسمهان وشقيقها فريد.. انتقلوا بعدها إلى المدرسة الريفيّة الإنتاجيّة، وشاهدت ما كان يزرعه الطلاّب في البستان الملحق بالمدرسة، وتعرّفت للمرّة الأولى إلى جهاز لتفقيس البيض دون حاجة (للقرقة)، وشعرت

بالإعجاب بهذا الاختراع، مع حزنها الشديد على صيصان أيتام، تعيش محرومة من حنان الأمّ! تساءلت الطفلة: لماذا لا تتحوّل كلّ المدارس إلى مثل هذه المدرسة.. لماذا يُسجن الأطفال بين جدران الصفّ، وهم بحاجة إلى نور وهواء ونشاط وإنتاج؟

انتقلوا بعدها إلى بلدة مياماس، وما إن علم سكّان البلدة بحضور الأستاذ، حتّى قدموا بالعشرات للسلام عليه.. كان صاحب البيت مصرًّا على تقديم الغداء، ووافق الأستاذ بشرط ألاّ تُراق قطرة دم واحدة، من أيّ مخلوق صغير أوكبير.. ومع خيبة أمل الضيوف، قبل الأستاذ أن يتغدّى مجدّرة فقط! وأُكرمت ابنة الأستاذ بصحن من البيض البلديّ المقليّ الذي كان يسبح في السمن العربيّ الشهيّ.. وبدأت تتلمّظ مستمتعة بهذا الطعم الشهيّ، وإذ بالسائق يترك المجدّرة، ويشنّ غارة ساحقة ماحقة على البيض المقليّ، وبصعوبة تمكّنت الطفلة من اقتناص بعض اللقيمات! ربّما كان ذلك انتقاماً من الأستاذ الذي يحرمه طيّبات الطعام، ويصرّ على أن يأكل باحتشام شديد بعض لقيمات من حواضر البيت..

كان أشهى طبق بيض تناولته في حياتها، وبقيت تتكلّم عن طعمه المميّز، إلى أن قالت لها قريبتها، إنّ هذا الطعم هو بسبب النظام الغذائيّ الذي يقدّم صباحًا للدجاجات، فتأكله بنهم واستمتاع شديدين.. أخبرتها قريبتها عن الوجبات الساخنة التي تُقدّم للدجاجات صباحًا بكرم شديد.. وليتها لم تفعل!

عند مرورهم من سهوة الخضر، أحسّت الطفلة بذبذبات روح خـيّرة، اسـتعادت قدرتها على اسـتشـعار نبض الكون.. شـعرت أنّها عادت إلى التقاط ذلك الإرسـال القادم من مكان ما، شـيء كانت لا تجد له كلامًا قادرًا على تجسيده.. علمت فيما بعد أنّ حدسها كان في مكانه، فسهوة الخضـر فيها مزار لمار جرجس، أو الخضـر الذي تجلّه كلّ الأديان والمذاهب.

في أثناء تجوالنا، شـاهدنا عرسًـا ريفيًّا في إحدى القرى، ورجوت والدي أن يدعني أتفرّج، وقد فعل، وكان فرح الحاضـرين كـبيرًا بمشـاركة الأستاذ..

كان عرسًـا للجمال والألوان والفرح.. أثواب مقصّـبة بألوان بهيجة مفرحة.. دبكات مفعمة بالعنفوان والرشـاقة وجمال الحركات.. الدفّ والناي يرافقان المحتفلين، من خلال موسـيقا هي ابنة الأرض والتاريخ.. وأغـانٍ جميلـة من تراث عرف كيف يصـوغ الكلمـة شـعرًا يلامس الوجدان:

بالـورد والحنّة... رشّـو الوسـايد... بالورد والحنّة
ياخذ ويتهنّا... قولو للعريس... ياخذ ويتهنّا
بالـورد والهيلي... رشـو الوسـايد... بالورد والهيلي
من كبار العيلة... حنّا خذينا... من كبار العيلة

وتنطلق زغاريد النساء متغنيّة بجمال العروس:

آآآآويها... دقّت طبول الفرح من دخلتك عالدار
آآآآويها... يا نجمة سهيل... ياضو القمر غرّار
آآآآويها والتمّ يقطرْ عسل... والخدّ يقدحْ نار
آآآآويها... والخصرْ من رقّتو ما يحملْ الزنار

لو لو لو ليش

ولا ينسيْنَ العريس من كلمات تتغنّى بوسامته وخصاله:

آآآآآويها... شو هالغزال الحلو ومزيّنو طولو

آآآآآويها... والتِمْ خاتم ذهب محبوك باللولو

آآآآآويها... سمّو باسم الله حولو وقولولو

آآآآآويها... إن شالله تتهنّا ويا إخواتو زلغطولو

لولولو ليش

ركبت العروس على فرس أصيلة، وقبل أن تسير وقف المشوبش لتلقّي "نقوط" هديّة للعروسين، أعطاني والدي قطعة نقديّة (نقوط).. سألني المشوبش عن اسمي فقلته دون أن أعرف السبب.. وإذا بالمشوبش يصيح بصوت يسمعه الجميع:

يخلف عليكي يا سلمى يا بنت عبيد ونردّ عليكن ردّات خير.

وانطلقت الدفوف والزغاريد.. وقلبي يرقص فرحًا لهذه المفاجأة..

في العودة شاهدت الطفلة في الكفر حرشًا مليئًا بأشجار معمّرة جميلة.. وتكحّلت عيناها بمنظر اللون الأخضر من جديد.. الشجرة جزء من وجدانها، من روح الشيخ نعيم، من ذكريات طفولتها في القرية اللبنانيّة الخضراء..

أحسّت بها أيادي ترتفع بالدعاء، فتجلب للناس مطرًا، وخيرًا، وهواءً نقيًا.. أو كأنّ الأشجار أمّ تحضن أطفالها، من بشر، وحيوانات، وطيور.. كان لتلك الأشجار قدسيّة كبيرة، والناس يتناقلون عبارة: "قطّاع الهيش، ونتّاف الريش، عمرو ما بيعيش.." في إدانة من المجتمع لكلّ من يقطع شجرة من الحرش، أو يقتل طائرًا بريًّا..

قلب وكمشة تراب..

تقف الوالدة في المطبخ، تنظر إلى القليل من الحليب الذي يغلي على بابور الكاز، ودموعها الصامتة تُغرق خديها.. كان من المفروض أمس أن يشتريا قطعة الأرض الجميلة القريبة من كنيسة طريق قنوات..

كم انتظرت هذا اليوم.. يوم يصبح فيه لأولادها أرضٌ، يبنون عليها بيتًا، أو حتّى ينصبون خيمة! أرضٌ تزرع فيها شجرة زيتون للبركة.. عريشة عنب ليلعب الأولاد تحتها.. والكثير الكثير من الورود.. عندها الآن ثلاثة أطفال، لا تُريدهم أن يمضوا حياتهم متنقّلين من بيت إلى آخر..

كم تعبت حتّى جمعت مئتي الليرة ثمن الأرض.. حرمت نفسها شراء أيّ شيء لها.. اختصرت من طعام أطفالها.. دأبت على التوفير في كلّ ما تستطيعه، من أجل تحقيق هذا الحلم.. إنّها أمّ.. حتّى أمّ العصافير تبني لها عشًّا..

* * *

ما إن علم الوالد أنّها تمكّنت من توفير هذا المبلغ، حتّى أصرّ على استصلاح كرم عين المرج، وغرسه بالتفّاح.. كان حلم الوالدة بيتًا لأطفالها.. وحلم الوالد وطنًا ناهضًا لأولاده وجميع الأولاد..

كان نخبة من الشباب قد استعانوا بخــبراء في الزراعة، أكّدوا لهم أنّ تربة الجبل ومناخه مثاليّان لهذه الشجرة.. بعض الروّاد زرعوا بساتين التفّاح البعيدة والقليلة، لكنّ أبو أكرم كان يحلم بالجبل، وقد شُــقت فيه الطرقات، وزرعت الكروم والبساتين. وتحوّل لونه من أسود بازلتيّ إلى جنائن خضراء! يريد مشروعات تؤمّن عملًا ودخلًا للشبّان، بدل أن يهاجروا، ويخسرهم بلدهم.

* * *

جلس الوالد مفكّرًا.. أمّ أكرم زعلت.. تقول إنّه من أجل توفير هذا المبلغ، جعلت أولادها يأكلون خــبزًا مغموسًا بالماء، وبعض الحليب.. لو أنّها تعلم ما الذي كان يأكله زوجها في صــحراء النبك الســعوديّة.. اســتعاد ليالي الجوع.. اضــطرارهم إلى أكل الشــوك.. انتظارهم للجراد لكي يجفّفوه، ويخزّنوه لمؤونة تحميهم من الموت جوعًا.. هم تحمّلوا من أجل اســتقلال الوطن.. وأولاده يجب أن يتحمّلوا من أجل نهضــته الاقتصاديّة..

راتبه ثلاثمائة لــيرة، يستطيع أن يشتري قطعة أرض كلّ شهر، ويعيش بالباقي عيشــة الملوك! ولكنّه يعلم أنّ البلد لا يتقدّم بغير التكافل والتعاون، والإحساس بوجع الآخر، واقتسام الرغيف معه..

* * *

مئتا لــيرة سوف تؤمّن استصلاح الأرض، وشراء غراس التفّاح.. أوصى على غراس غولدن وســتاركن من أفضــل الأنواع، وطلب من العمّال البدء من الغد.. أمّ أكرم حزينة وغاضبة، لم يشاهد في عينيها مثل هذا الإحباط والحزن من قبل.. ولكنّ هذا المشروع سوف يشجّع الآخرين.. البلد أهمّ من الزوجة ومن الأولاد.. الوطن أوّلًا.

ومرّت الأعوام..

الكروم والبســاتين انتشــرت واحدًا جنب الآخر.. الجبل تحوّل إلى جنّة خضــراء.. أمّ أكرم تمكّنت مرّة أخرى من توفير مبلغ جديد.. باعت كلّ ما بقي من مصــاغها الذهبيّ.. واســتدانت.. واشــترت قطعة أرض إلى جانب طريق قنوات، برغم أنّ ثمن قطعة الأرض كان قد ارتفع من مئتي ليرة إلى بضــعة آلاف! ونجحت في أن تبني بيتًا لأطفالها، زرعت فيه زيتونة وعريشة والكثير من الورود..!

وبستان عين المرج ذبل وجفّ، بعد انتقال أصحابه إلى دمشق.. ولكنّ جذور الأشجار لا تزال برغم موتها، تضمّ حكاية وقلباً وكمشة تراب..

طفلتان ضائعتان في ظهر الجبل

جلستُ أمام الباب أريد أن أصدح بموّال بكاء.. والبكاء كالغناء لا يحلو إلا بوجود جمهور المستمعين!.

كان يوم جمعة، موعد المشـــوار مع والدي إلى ضـــهر الجبل، فتحت عينيّ، ونظرت حولي. والدي لم يكن موجودًا. ســـألت عنه، وعندما علمت أنّه ذهب دون أن يأخذني بدأت وصلتي، وصدحت بموّالي:

- ووو
- يا فتّاح يا عليم يا رزّاق يا كريم.. شـــو بدّك؟ إذا بدّك بيّك صار بالجبل.
- بدّي بيّي ووو.
- صار بالجبل ما بتسمعي؟

سمعت ما قالته، ولكنّني استمررت بالبكاء: ووو

لم أكن أبحث عن معلومات أو عن حلّ، كنت أحتاج إلى بعض المواســـاة، إلى كلمة رقيقة، إلى نظرة حنان، أو على الأقلّ أن تتركنـــي "أفشّ خلقي"!

عدت بذاكرتي إلى أيّام عين عنوب، كان ما إن ينطلق موّالي: ووو.. حتّى أجد الســـمّيعة قد تقاطرت.! الخالات وبنات عمومتهنّ، وعمّاتهنّ، والجارات، والقريبات، واحدة تمسح دموعي.. وواحدة تســـتمع إلى مشكلتي، وثالثة تربّت على كتفي، ورابعة تحضر لي الشوكولاتة..

كانت والدتي تتمزّق ألمًا، وكانت هي أيضًا بحاجة إلى من تشكو له همّها..
بقيت مديرة ظهرها، وجاء جوابها جافًّا وحازمًا:

- بدك "تبَوّمي" اطلعي "بَوّمي" برة!

زاد بكائي مع تشـــبيه موّالي الذي كنت أظنّه رخيمًا بصـــوت البوم..
فخرجت باحثة في كلّ الاتّجاهات عن أحد أطربه بصوتي!
شاهدتها قادمة..

- ووو

- ليش عبتبكي ولي؟

- بدّي روح على ضهر الجبل لعند بيّي.. ووو..

- قومي أني باخذك، بعرف الطريق.

كانت طفلة أكبر منّي بســـنتين، جريئة، مغامرة، عفويّة تفعل ما تريد دون اكتراث للعواقب..
وجاء لقب "الجنّيّة" ليزيدها تصميمًا، على أن تكون جديرة به.
لم أتوقّع جوابها، فتحت عينـــــيّ على اتّســـاعهما، ضـــهر الجبل بعيد والطريق موحشـــة، وقد ســـمعت أنّ الضـــباع والوحوش كانت تتجوّل بـاحثـة عن لحم طريّ! لم أكن أطمح من وراء بكـائي إلاّ إلى بعض الاهتمام، والآن يجب أن أجد حجّة للتهرّب..

- إمّي بتخلّينيش.

- ما عليكي.

غابت في الداخل برهة ثمّ عادت:

- قومي.

سألتها غير مصدّقة:

- قلتيلها؟ كذّابة..

- إن شاء الله يعمو عيوني إن كنت عم بكذب..

لم تكن تكذب ولكنها جنّية، فقد دخلت ووجدت والدتي مديرة ظهرها، فهمست من بعيد:

- نحنا طالعين على ضهر الجبل.

وتكفّل صوت بابور الكاز بألاّ تسمعها الوالدة.. ولكنّ الجنّيّة مستعدة أن تقسم صادقة، إنّها قد قالت للوالدة..!

لم أصدّقها، ولكنّ جرأتها أصبحت معدية.. فقد بدأ يتحرّك في داخلي تمرّد على ذلك الملل الذي يقتل أيّامي، ورغبتي في الحياة مثل سمّ بطيء.. ألا يحقّ لي أن أتحرّر ولو يومًا واحدًا من إسار العقل والمنطق؟ أن انطلق مع الجنّيّة وأكون جنّيّة مثلها؟

ووجدت نفسي أسير معها على الطرق الترابيّة الضيّقة والمتعرّجة باتجاه ضهر الجبل..

في البداية كنت منفعلة بالمغامرة، ثمّ بدأت أتعب وأخاف، وأتخيّل ضباعًا، ووحوشًا من مختلف الأشكال والأحجام، تنقضّ علينا، ولا تترك منّا سوى ثيابٍ مدمّاة مبعثرة هنا وهناك..

- بدّي ارجع على البيت أنا جوعاني وتعباني..

- قولي إنّك خايفي يا "ظعيني".

قالتها مُستفزّة.. كانت كلمة "ظعينة" وتعني المرأة، تطلق على الجبان المتخاذل أيّام مقاومة الاستعمار، وهل هناك شتيمة أقذع من أن يشبّه الرجل بجلال قدره بمخلوق تافه كالمرأة!.

ثمّ أصبحت كلمة ضعينة تطلق على الجبان ذكرًا كان أم أنثى.

تابعت سيري على مضض، فهل أرتضي لنفسي أن أكون ضعينة!

سـرنا.. وسـرنا.. لم يكن في المنطقة كلّها طريق معبّدة.. والتلّ الأحمر الذي يقع إلى جنوب كرمنا، لا يزال بعيدًا.. كنت كـثيرًا ما أذهب مع والدي سـيرًا على الأقدام، ولكنّ المشـوار معه كان مختلفًا.. يمسـك بيدي ونسـير، وهو يحاول أن يجعلني أشـاهد الطريق بعيون المحبّ للأرض والوطن وقلبه.. وبلغة الشاعر الأديب الذي يسبغ جمالًا، حـتّى على الأرض الجرداء، والحجارة السـوداء المتجهّمة.. كان يحملني كلّما لاحظ تعبـي.. يضـعني على كتفيه، وهو يغني أهازيج فرحة، وقصـائد يحفظها، أو تأتي وليدة اللحظة.. نصـل إلى الكرم في عين المرج سـريعًا، وأنا أتمنّى أن تطول الطريق، وتطول..

رفيقتي لم تعد تسلّيني.. تعبتُ من السير.. أحسست بجوع شديد، فأنا لم أتناول طعامًا منذ أمس، وقدماي تقرّحتا من الصـخور والأشـواك، واختلط الدم بغبار الطريق..

- بدّي إرجع على البيت..

قلت بحزم.. كانت هي أيضًا قد أيقنت أنّه لم يعد أمامنا حلّ آخر.

اسـتدرنا لنعود.. ولكن أين طريق العودة؟ الدروب بدت متشـابكة ومتشـابهة، والتصـوينات الحجريّة بدت للطفلتين الصـغيرتين جدرانًا عملاقة، تحجب الرؤية.. علقنا في متاهة من جدران سـوداء مرعبة.. جلسنا على الأرض.. جوع وعطش وبرد وأقدام صغيرة تنزف دمًا لزجًا.. الجلوس ضاعف الرعب.. كان السكون والصمت مُخيفين.. لا إنسان.. لا حيوان.. لا حـتّى نسمة هواء.. لا شيء سوى ذلك الصمت الأخرس الرهيب..

لاح لنا من بعيد شـبح مخلوق أسـود مخيف، يُخفي الضـباب الكثيف تفاصيله.. وكأنّ الرعب أنسانا ألمنا، وشحننا بقوّة للركض لم نكن نظنّ

أنّنا نمتلكها.. ولكنّني من فرط رعبـــي وســرعتي، ســقطت على الأرض بعنف، وجرحت ركبتي جرحًا بليغًا. عدت للجلوس على الأرض مغمضة العينين، باســتسـلام فريسـة، أيقنت أن لا فرصـة لديها للهروب.. كان مخلوقًا لم أشــاهد مثله من قبل.. مخلوقًا بســتّ أرجل ورأســين.. رآنا، وأحسسنا به يقترب.. ويقترب.. ويقترب.

* * *

كانـت والـدتي واقفـة في المطبخ، تُراقـب الحليـب وهو يغلي على بـابور الكاز، ودموعها تغرق خدّيها.. لديها ثلاثة أفواه تحتاج لطعام، واليوم زوجها أخذ كلّ ما كان معهم من نقود، لشــراء غراس تفّاح لكرم عين المرج.. لم يســبق لأحد أن غرس تفّاحًا في عين المرج، وزوجها أراد أن يكون البادئ، فيؤمّن فرص عمل، ويشـجّع الآخرين على إقامة مشـاريع مُنتجة.. ماذا تفعل؟ إضـافة إلى الأكل والشـرب، لا بدّ من شـراء أرض تكون لأولادها وأحفادها.. أسـعار الأراضي ترتفع بشـكل جنونيّ.. مـــتر الأرض جانب طريق قنوات كان بفرنكين أصـــبح الآن بربع لـــيرة.. من يدري، ربّما يصبح سعر المــتر خمس لــيرات سوريّة كاملة.. إذا لم تقم بالشراء الآن فستضيع الفرصة..

نـدمت لأنّهـا ردّت على ســؤال ابنتهـا بجواب جـافّ متشــنج، والبنـت حسّـاسـة، ومعتادة على الدلال.. ولكنّها هي أيضًـا إنسـانة من لحم ودم.. أطفأت بابور الكاز، وذهبت لتنادي ابنتها التي توقّعت أن تكون في بيت جارتها نجوى..

- سلمى.. سلمى.. سلمسسسسسسى

لا جواب..

بحثت في كلّ مكان داخل البيت.. دارت حول البيت تنادي.. سألت الجيران.. لا جواب.. لا أحد شاهدها.. لا أحد يعرف مكانها.. تجنّد الحيّ بأكمله للبحث عن الضائعة.. سألوا الأقارب، المعارف، الجيران.. لا أحد يعرف شيئًا..

اكتشفوا اختفاء طفلة أخرى أيضًا.. تقاطر الناس إلى بيت الأستاذ، وجاء أبو فيّاض.. وكأنّه لم يكن ينقصها الآن إلاّ هذا البالوص الذي يصطاد بالماء العكر بينها وبين زوجها.. كان حقد أبو فيّاض على زوجة الأستاذ أضعاف حقده على الأستاذ.. فالشوفانيّة تعامله باحتقار شديد، بعد أن أخبرتها أمّ حسين أنّه بالوص، وبعدما سمعته بأذنها، وهو يحرّض الأستاذ على ضربها، وعلى أن يطلّقها، ويتزوج صبيّة بيضاء، شقراء، بعمر أربع عشرة سنة، يختارها له أبو فيّاض! وكان هو يمقت ذكاءها، وقوّة شخصيّتها، وذلك العنفوان المهذّب في سلوكيّاتها.. كان يحلم بيوم يذلّها فيه. وقد جاء.. هذه أوّل مرّة يرى الشوفانيّة منهارة باكية.. واتته الفرصة ليدمّر ما بقي من تماسكها..

- إن شاء الله ما يكون سبعها الضبع.. سمعت الضباع جاعت، وصارت تقرّب من البيوت.. امبارح الضبع سَبَعْ شبّ، وسحبه وراه على مغارتو وأكلو!.

راقب عيون الوالدة التي تملّكها الرعب، وأحسّ بنشوة الشماتة. سكت قليلًا ثمّ أضاف:

- إن شاء الله ما يكون خطفها شي "ابن حرام"..

نظر إلى الأمّ المنكسرة، وتابع:

- إن شاء الله ما تكون غرقت بالوادي..

لم يكن أبو فيّاض ليسكت لو لم ينهره أحدهم:

- أبو فياض.. نقّطنا بسكوتك..

أقعى في الزاوية، وبدأ يهمس لمن حوله:

- نصّ السويدا صارت هون منشان شقفة بنت؟ راحت الله لا يردّها.. قلّة بنات!.

ساعات وهم يبحثون دون جدوى، ولا بدّ الآن من إخبار الأستاذ. ركبوا سيّارة ملحم الفقيه اللاندروفر، وذهبوا شرقًا باتّجاه ضهر الجبل..

كان الأستاذ يحمل معولًا ويعمل مع العمّال.. يُحادثهم.. يستفسر عن أحوالهم.. يستمع إلى أغانيهم المثقلة بالهموم..

فجأة، لاحت سيارة اللاندروفر من بعيد، تجاهد باستماتة للوصول إلى الكرم، تاركة وراءها سحابة كثيفة من الغبار..

وصلت السيّارة، وصاح صوت مألوف:

- يا أستاااااااذ..

كان أسفل التلّة.. رمى المعول من يده، وانطلق صاعدًا.. قلبه يُنبئه أنّ شيئًا قد حصل..

- يا أستاذ، سلمى ضايعة.. دوّرنا عليها وما لقيناها..

كنت قد جلست على الأرض ورأسي على ركبتي..

برد، وجوع، وعطش، وألم في الركبة.. والرعب من ذلك السكون الجليديّ.. من الضباب القاتم الكثيف.. ومن المخلوق الذي يقترب ويقترب..

انطلقت من أعماقي صرخة يائسة خرساء لم تسمعها رفيقتي، ولكن كان "في قلب الكون المقفلِ.. من يُصغي لي"..

فجأة أحسست بسكينة وأمان، واستشعرت اقتراب روح خيّرة. فتحت عينيّ، ووجدت أنّ المخلوق العجيب لم يكن سوى فلاّح عجوز يركب حمارًا! كان وجهه ترابيًّا.. بلون ثيابه.. بلون حماره.. بدا أعجفَ ومنطفئًا مثل شجرة شوك يبست منذ زمن.. وكانت له ملامح كبرت حيث يجب أن تصغر، وصغرت حيث يجب أن تكبر!.

- شو عبتعملو هون يا جدّي.. بنات مين إنتو؟

- هذه بنت الأستاذ سلامي، كنّا طالعين على كرم عين المرج وضعنا.. ما عدناش نعرف الطريق..

قفز عن حماره.. واكتسى الوجه الترابيّ بفرح طفوليّ صادق:

- يا حيّ الله يا جدّي.. يا حيّ الله.. إنت بنت الأستاذ؟ اطلعو يا جدّي اركبو عالحمار.. نحنا قرايب يا جدّي.. نحنا من هون من مصاد..

قال وهو يشير إلى قرية قريبة..

ركبت الجنّيّة مثل فارسة متمرّسة.. وجلستُ وراءها متشبّثة بها..

- جوعانين يا جدّي؟ معي زوّادة لبن قطيع، وخبزات جداد.. بتاكلو يا جدّي..؟

تقاسمنا بفرح زوّادة الشيخ..

لاحظ أنّنا نرتجف، فالجوّ في السويداء يختلف عنه في ضهر الجبل.

- بردانين يا جدّي؟

وخلع الفروة التي كان يلبسها وغطّانا بها..

ثم نظر إلينا بتأنيب:

- يا حول الله.. يا حول الله.. كيف يا جدّي بتطلعو لحالكن.. مخاويث إنتو يا جدّي؟؟

كنّا خائفتين، لكنّ صوته الصادق الحنون أشعرنا بالاطمئنان.. وعندما كان يقول: "يا جدّي" كان يلمس وترًا حسّاسًا.. كان يذكّرني بصوتٍ غاب منذ زمن..

بدأ يسلّينا بقصصه.. أخبرنا كيف أنّ جدي عليّ كان قاضيًا مدنيًّا، وكان يستضيف القادمين من مكان بعيد في مضافته إلى حين انتهاء الدعوى.. وضحك العجوز بمرح، وقال:

- كنا لمّن نشتهي المنسف نعمل حالنا متخاصمين ونقعد بمضافته آكلين شاربين مبسوطين!

واختنقت الضحكة، وقال هامسًا بشجن عميق معتّق:

- كنّا معثّرين.. ما نذوق اللحم غير من العيد للعيد.. كان أبو نايف يحسّ بالفلاّح يا جدّي.. كان يحسّ فينا.. آآآآآه

توقّف ليلتقط أنفاسه، وكأنّ التنهيدة العميقة التي أطلقها استهلكت كلّ طاقته.. ثم كرّر فجأة:

- يا حول الله.. يا حول الله.. كيف يا جدّي بتطلعو لحالكن.. مخاويث إنتو يا جدّي؟

لاحظت الجنّيّة أنّه يسير بصعوبة، فسألته عن رجله المعطوبة، وبدأ قصصه التي كان يرويها مع حركات بيديه..

- رجلي من رصاص الفرنساويّة.. كنّا نهجم عليهن بسيوفنا، وكان عندهن دبّابات وطيّارات، بسّ كانو المجاهدين أبطال ما بهابو الموت..

وبدأ ينشد مطلع قصيدة يقول:

"صـــاح الـوطن يـا لابتي ينخينـا.. وين النشـــامى اللي يردّو وينـا، وين النشامى اللي لهم عاداتِ ماتسمعو داعي الشرف يدعينا؟"

بدأ يروي تفاصـيل عن المعارك، وعن بطولات المجاهدين، عن المجاهد أجود مرشــد الذي قُطعت ســاقه في المعركة، فتابع القتال وهو ينتخي بها.. عن آل علم الدين حملة البيرق الذين تساقطوا شهداء واحدًا بعد الآخر، فداء للعزّة والكرام، ولكيلا يتمرّغ البيــرق بالتراب.. عن سليمان العيســي الذي بقي ســنوات متنكّرًا بزيّ بـدويّ، لينقل للمجاهدين السـلاح والمؤونة، برغم قسـاوة المشـاهد، كنّا نتابع حكاياته ونعيشـها بحماسة شديدة، وكأنّنا في قلب المعركة.. ثمّ انتقل إلى الحديث عن أبو نايف علي.. "كان عقل وإنســانيّة ووطنيّة وشـجاعة.. يا حســرتي على نـايف بعثوه على تركيّا ليـدرس بـأحلى مـدارس، وبسّ رجع اشــترولـه ســيارة.. يا جدّي كنّا نروح نتفرّج عليها فرجة، ونقول بيت بو نايف عندهن حصـان حديد! أني حضـرت عرس نايف، كانت عروسـته مثل البدر..".

توقّف ليريح رجله، وهمسـت الجنّيّة في أذني: "إسّـا بدّو يقول: مخاويث إنتو يا جدّي؟"

وما كادت ضحكتنا تنطلق مجلجلة، حتّى أعادها بلهجة من حصل على الجواب:

- مخاويث.. آي.. مخاويث إنتو يا جدّي..

وأصــبحـت الرحلـة ممتعـة.. ركبـت على الحمـار أوّل مرّة في حيـاتي.. وتغطّيت بفروة.. وأكلت خـــبزًا جديدًا مع لبن قطيع.. وسـمعت حداء، وقصصًا طريفة، وأخرى حزينة..

* * *

كان والدي جالسًا إلى جانب السائق، مستغرقًا في أفكاره.. أين يمكن أن تكون قد اختفت؟ بدأ يتخيّل ما يمكن أن يكون قد حصل.. لم تعد سيّارة اللاندروفر إلى السويداء فورًا، فقد قرّروا أن يراقبوا الدروب الضيّقة المؤدّية إلى الكرم من تلّة عالية.. وشاهدوا عجوزًا يسوق حمارًا، يحمل فروة تحتها ما يشبه الأطفال..

وصاح السائق:

- مِشْ هذي بنتك أستاذ؟

وفعلًا كانت ابنته ورفيقتها الجنّيّة!.

شكر والدي العجوز، خصوصًا بعدما علم أنّه أطعمنا زوّادته.. وحمانا من البرد بفروته، بينما هو يرتجف من الـبرد.. وأركبنا على حماره برغم ألم رجله المعطوبة..

والدي لم يضـربني.. لم يؤنّبني.. نظر إليّ طويلًا بألم.. بعتاب.. وعلم أنّ تلك النظرة ستكون أقسى من أيّ عقاب..

وصلنا إلى البيت، وكان في استقبالنا جمهور ملأ المضافة..

برغم أنّ والدتي لم تكن تضـربني، ولكنّني في ذلك اليوم تلقيت صـفعة "من كعب الدست" تليق بالمناسبة!.

انتشى أبو فيّاض، وبدأ يتراقص مثل سعدان في سيرك:

- عندِك ياها.. اسـلخي جلدها.. اضـربيها.. اذبحيها.. كسّـريها.. خليها تتربّى..

لاحظ أنّني احتميت بوالدي الذي ضمّني بحنان.. فبدأ يهمس:

- يا ولداه.. يا ولداه.. ضـربِت البنت.. يا حرام كيف خلعت لها حنكها.. طفلة صغيرة مش الحقّ عليها..

اقترب من أذن والدي وتابع هامسًا:

- الحقّ مش على الطفّولة أُستاذ.. الحقّ على أمّها ما بتدير بالها عليها.. الأمّ هيّي يلّي بتستاهل الضرب.. عندك ياها أستاذ.. اسلخ جلدها.. اضربها.. اذبحها.. كسّرها.. خلّيها تتربّى.. طلّقها أستاذ.. طلّقها وأني بجوّزك عروس طول وعرض، مش مثل هالقرقودة!

تركه الوالد وذهب ليجلس بعيدًا عنه قدر الإمكان..

راقبتُ وجوه المتفرّجين.. كانت نجوى وأمّها تنقّلان نظريهما بقلق، خوفًا من أن تتبع الصفعة صفعات.. ومن مكان آخر كان أحدهم يجلس وفي عينيه خوف أكبر من ألاّ تتبع الصفعة صفعات!.

الغنيمة!

في اليوم التالي، أطلّ أبو فيّاض بطلعته البهيّة! جاء ليتفقّد الألغام التي زرعها بالأمس.. ما أحلى أن يكون قد قذف بالشـوفانيّة إلى بيت أهلها.. أو على الأقلّ أصابها بعاهة دائمة في كبريائها..

كنت ألعب أمام الباب مع نجوى:

- مرحبا يا شقرا..

قال لي بمزاح ساخر سمج..

التقطت نجوى اللهجة الساخرة، فردّت على الفور:

- دخل شقارك إنت يا قفا الطنجرة!
- اخرسي يا سعدانة..
- سعدان ينطنط بين كتافك..

كان أبو فيّاض يختار لمجيئه الأوقات التي يعرف فيها أنّ الوالد يكون نائمًا.. فيقول:

- الأستاذ نايم.. طيب ما تفيقوهوش.. بستنّاه بالمضافة ليفيق..

نظام أبو فيّاض لا يتغيّر.. يأتي مرتديًا سـترةً خاكية بجيوب كبيرة، يخلعها عندما يدخل إلى المضافة، حتّى لو كان متجمّدًا من البرد..

ما سـرّ هذه السـترة؟ لماذا يخلعها ببطء شـديد.. يمسّـدها طويلًا ثمّ يضعها على كرسيّ الأستاذ.. والسترة ليست سوى قطعة بالية مجعدّة، تبدو كأنّ كلبًا قد مضـغها.. لماذا يتمهّل عندما يقف قرب الطاولة لارتدائها؟ ولماذا تكون عيناه مصوّبتين على طاولة الأستاذ؟

الكرسيّ الذي يختاره أبو فيّاض لشرف استضافة سترته العتيدة كان إلى جانب الطاولة التي يضع عليها الأستاذ كتبه وصحفه وأوراقه.. لماذا

يُكثر أبو فياض الاقتراب من الطاولة؟ هل يريد أن يسرق شيئًا؟ وماذا يمكن أن يسرق، والأستاذ يؤمن بمبدأ الكتاب للجميع، فما إن يفرغ من قراءة كتاب أو مجلّة حتّى يعيره لأحد من أصدقائه.. والصديق يعير الصديق، لم يكن ليهتّم إذا عاد الكتاب إليه أو لم يعد، المهمّ أن تنتشر الثقافة بين أكبر عدد من الناس..

كانت كتبه كثيرًا ما تنتهي عند صديق، هوايته إراحة الكتاب من عناء الدوران، وتكريمه بتغليفه بأناقة، ووضعه في مكتبة مقفلة بالمفتاح، تبتلع الكتب بنهم شديد! كان الأستاذ يعلم ذلك، ولكنّه كان يأمل أن يكون الكتاب قد قام بجولة مفيدة، قبل أن يقع أسير المكتبة الأنيقة!.

دخل أبو فيّاض المضافة، ووقف كالعادة قريبًا من الطاولة التي يضع عليها الأستاذ كتبه وأوراقه، ثمّ تلفّت حوله بحذر، وعندما لم يشاهد سوى طفلتين (بريئتين!) تلعبان (الزقطة). أخرج دفترًا صغيرًا، وبعد أن تفحّص محتويات الطاولة، سجّل ما حظي به من معلومات على دفتره..

هذا الدفتر هو مفتاح اللغز! إذا حصلنا على الدفتر فسنعرف سرّ البالوص!.

جاءتنا الفرصة.. أبو فيّاض دسّ الدفتر في جيب سترته عندما شعر أنّ الأستاذ قد استيقظ، وخرج متظاهرًا بالمساعدة في نشر قطع الخشب، لعمل مجسّم للسويداء، فهو بذريعة المساعدة يستطيع أن يكثر من زياراته، دون إثارة للشبهات!.

كالعادة خلع أبو فيّاض سترته، ووضعها على الكرسيّ.. دفتر صغير.. وطفلتان فضوليّتان.. وبالوص يعمل في الخارج!

- الدفتر بجيب السترة..

- طيّب روحي جيبيه..

- لأ، عيب الواحد يمدّ إيده على جيوب الناس..

كانت ابنة الجيران ذكيّة وجريئة:

- ولا يهمّك..

ذهبت باتّجاه السترة، نفضتها ليسقط الدفتر من تلقاء نفسه! وقالت مفاخرة:

- وقع لحالو.. أني ما مدّيتش إيدي على جيبة حدا!

* * *

تفحّصنا الدفتر.. ولا تزال صورته مرتسمة في ذاكرتي.. دفتر صغير، كتب على يمين الصفحة التاريخ، وعلى يسارها الساعة.. ثمّ عبارات غامضة بالعربيّة والفرنسيّة.. ركضنا بغنيمتنا إلى الوالدة..

- لقينا هالدفتر واقع بالمضافة..

ناولناها الدفتر مفتوحًا! كان الأمر واضحًا لها!

عاد أبو فيّاض، دسّ يده في جيب الجاكيت فلم يجد الدفتر.. بدأ يبحث كالمسعور.. في جيوبه.. على الأرض.. تحت الطاولة..

وقفت والدتي تراقبه من بعيد..

- مضيّع شي أبو فيّاض؟

- دف دف.. قلم.. أي قلم ستيلو..

- اعتمد أبو فيّاض.. دف ولاّ قلم؟

- د دلم.. قفتر..

ردّد متلعثمًا..

رفعت الدفتر مفتوحًا:

- هذا مش دفترك؟ وهالخطّ "الحلو" مش خطّك؟

لم يكن هناك مجال للإنكار.. أصبح رخوًا.. فارغًا.. صغيرًا.. (دولاب سيارة مبنشر)!..

جرّر نفسه باتّجاه الباب وخرج..

حنين

في السويداء، كنت أشعر بالحنين إلى عين عنوب..
أقف في شبّاك المضافة.. السماء تمطر.. والمطر شجن وذكريات..
الليل سواد..
سطوح البيوت في عين عنوب من التراب.. الناس يحدلون السطوح، وجدّي ليس على السطح..
يحمل عصاه باليمين واللوكس باليسار، وينزل إلى الجنينة، السيول غزيرة تهدّ حيطان الجنينة، وتسحب التراب إلى البحر الغربيّ..
ومَن غير الشيخ نعيم يقف في وجه السيل؟
- بتنزل بهالليل وقلبك تعبان يا شيخ بو نايف؟
- لازم قنّي للمَيّ أحلى ما تشلّق الحيطان..
السيل جارف، والماء إلى الركب، والليل سواد.. وأبو نايف في جنينة عين الطاحون ينقذها من غدر السيل..
يعود عند الفجر.. القلب عبئًا يحاول أن يتماسك.. وعلى الوجه ابتسامة رضا..
فقد وقف في وجه السيل، وأنقذ تراب الجنينة والجدران التي تحميه..
هل بقيت روحك تهيم فوق الجنائن لترى حال جنائننا؟
السيل جارف، والتراب يذهب إلى البحر، ولا يعود..
ومن غيرك يقف في وجه السيل؟

جموع مثل أضاحي المايا، يسوقها السيل إلى البحر الغربيّ..
عيون زجاجيّة تحدّق في الفراغ..
وابتسامات بلهاء على وجوههم..
خدّرتهم أوراق خضراء ملعونة..
أوراق لم تنبتها أرض الشرق ..
السيل جارف، يسحب التراب، والأشجار، والورود، والإنسان.
أين من يقفون في وجه السيل؟

زوّار الليل..

كانت ليلة وحشـيّة عاصـفة، فاجأتنا قبل موعدها بكثير.. وعبثًا كنّا نحاول أن ننام.. أصـوات رعد.. صـفير رياح.. وسـطوح توتياء تتخبّط بجنون.. والزمهرير الجليديّ يغزونا ويكتسـح أعماق عظامنا، مخترقًا الأغطية التي كدّستها الوالدة فوق أجسادنا الهزيلة، ومتحدّيًا باستخفاف قطرات المازوت المتساقطة ببطء شديد، في مدفأة صغيرة مقرورة، تصرخ مستنجدة بمن يدفئها!

سمعنا صوت توقّف سيّارة.. وطرقوا الباب..

نظرت والدتي إلى السـاعة وتمتمت: "اللهم اجعله خير..". وكانت تدرك في أعماقها، أنّ طارقًا في مثل هذه السـاعة، وفي هذا الجوّ ليس "بابا نويل!".. باب الغرفة التي ننام فيها ينفتح مباشـرة إلى الخارج، فتح والدي الباب، واكتسـحتنا العاصفة بأصواتها.. بزمهريرها.. بأمطارها.. وبأشـباح ثلاثة بدت كأنّها فقمات قطبيّة حملتها العاصـفة.. عرّفوا عن أنفسهم، واستأذنوا بالدخول..

تبادل والدي ووالدتي النظرات.. أين يستقبلانهم والمضافة تستضيف العاصـفة! نقلتنا والدتي بسـرعة البرق إلى السـرير الوحيد في الغرفة، وأصـبح مكاننا جاهزًا لاسـتقبال الضـيوف.. اندلقوا على الفرش حول المدفأة، وجلس والدي قبالتهم، بينما ذهبت الوالدة في محاولة لإيقاد المدفأة، وتحضير المضافة للضيوف.. كانت حاملًا في شـهورها الأخيرة، وحركتها أصـبحت متعبة ومؤلمة، لكنّها تحاملت على نفسـها، فمسـحت المياه التي تسـرّبت من شـقوق الباب والشـبابيك، وبدأت محاولاتها العنيدة لإيقاد نار المدفأة. ازرقّت يداها، وتجمّدت قدماها من الوقوف

في صقيع الغرفة، إلى أن ارتفعت ألسنة اللهيب، وتراقصت على أنغام الرياح المجنونة.. استدارت عائدة عندما سمعت صوتًا كأنّه انفجار قنبلة.. نظرت وشاهدت الدخان يملأ المضافة، وقطعًا من سخام أسود تسبح في الهواء، ثم تستقرّ على الفرش، وعلى الأرض، وعلى كتب وأوراق الأستاذ.. شعرت بالتطيّر والتشاؤم، وتمتمت:

- الله يجيرنا من شرّ هالليلة..

ذهبت لتحضر أدوات التنظيف، قبل أن يلتصق السخام بالفرش، ويصبح تنظيفه مستحيلًا.. عادت إلينا مرتجفة، مزرقّة من البرد، تسعل من الدخان، والسخام الذي عشّش في منخريها ورئتيها، وقالت لوالدي:

- الصوبيا مش عبتشعل، فقعت وتلّت المضافة شحوار..

جلست الوالدة على كرسيّ صغير، في أبعد زاوية، تفرك يديها، لتبعث فيهما بعض الدفء، فتستطيع أن تمسك الإبرة، وتكمل تطريز مفرش الطاولة الذي كانت توشوشه ذكريات السطيحة في عين عنوب، بزنابقها وورودها، وجلسات السمر تحت عريشتها، ربّما تنجح تلك الألوان بأن تمسح صورة السخام الأسود الذي رافق حضور زوّار الليل..

تكوّرتُ على نفسي، وغطّيتُ رأسي باللحاف، محاولة أن أحتمي من ضجيج العاصفة الصاخب.. ومن البرد.. ومن ذلك القلق الغامض الذي تسلّل مع زوّار الليل.. تلصّصت عليهم من تحت اللحاف بفضول.. شاهدتهم يوزّعون الابتسامات والإعتذارات بسخاء كبير.. نظروا حولهم إلى الغرفة الصغيرة ذات السرير الوحيد، وإلى خزانة من درفتين، كان واضحًا أنّها تضمّ كلّ ملابس الأسرة وممتلكاتها.. خُيّل إليهم أنّ مهمّتهم سهلة.. الأستاذ سيقبل بأيّ مبلغ ليتخلّص من هذه الفاقة، والزوجة الحامل التي ترتدي ثوبًا صيفيًّا في عزّ البرد، ستكون "واقعيّة"، وتسهّل لهم مهمّتهم..

- سمعنا عنكم كتير.. عن نضالكم ونضال والدكم.. عن ثقافتكم.. عن مواهبكم الأدبيّة.. والرئيس بيقدّركم وبيشرفه إنّو يتعاون مع النخبة الوطنيّة الواعية من أمثالكم..

توجّهوا بكلامهم إلى الوالدة:

- إن شاء الله تقومي بالسلامي يا مدام.. ما تواخزينا عزّبناكي.. عم تشتغلي إنتي يا مدام ما عندك خدّامي؟

كانوا يقومون بالمهمّة باحترافيّة شديدة.. المديح أوّلًا.. ثمّ الإغراء بأيّ مركز، أو وظيفة يختارها الأستاذ.. ثمّ "الجوائز النقديّة" التي يوزّعها الرئيس، من خزينة الدولة بسخاء شديد، وهناك.. المزيد..

"الرئيس" لم يُسند لهم المهمّة عبثًا.. كان لهم مكر ثعلب.. ونعومة ثعبان.. وفصاحة خطيب.. عبثًا جرّبوا كلّ ما في جعبتهم من أحابيل.. استنجدوا بالوالدة.. أغروها بالقصور، والخدم، والمجوهرات، وبحياة رغيدة لأطفالها..

الأســـتاذ يريد حرّيّة، وعدالة، وحياة كريمة، ليس له فقط ولكن لكلّ الذين جاهدوا، وضـحّوا من أجل هذا الوطن.. والضـيوف كانوا وكلاء مكاتب سـمسـرة، يبيعون ويشـترون مواقفَ وألسـنة وضمائر، بشـيكات دسـمة، تموّلها خزينة الدولة، أمّا الشـعب، فمتى كان للشـعب أهميّة في مكاتب السـمسـرة؟

جلس الضيوف الثلاثة متلاصقين على أحد الفرش، وجلس والدي على الفراش المقابل.. وكان واضحًا أنّ الفراشـين يُشـكّلان خطّين متوازيين، لا يلتقيان..

- بتعرف كم واحد بيتمنّى لو كان محلّك اليوم..؟ إيستاز مالك، عليّي يمين "فلان" طلب بلسـانو ستّين ألف ليرة، ومسـتعدّ يعمل شـو ما منطلـب منّو وأكتر.. ونحنـا مـا عمّ نطلـب منّـك إلاّ تقول إنّـك بتـأيّـد الرئيس..

سـكت والتقط أنفاسـه للضـربة التي كان يظنّها قاضـية، وتابع بتمهّل شديد:

- منعطيك شـــيك على بياض.. بتحطّ عليه الرقم يلّي بتريدو.. بالعملة يلّي بتريدا.. بالبلد يلّي بدّك ياه..

وقف والـدي إيـذانًـا بـإنهـاء الزيـارة.. بـدا عملاقًـا برأس مرفوع.. وكانوا مندلقين عند قدميه.. فقمات رخوة دبقة..

تحوّلت الفقمات الدبقة إلى ضـــباع اشـــتمّت رائحة الدم.. واكتســـت الوجوه بلؤم شيطانيّ.. وقالوا مهدّدين:

- بتعرف شـو يعني إنّك تتحدّى الرئيس؟ إنت فيك تتحمّل غضـبو؟ عندك زوجة وأطفال..

- قولوا لرئيســكن ســلامة عبيد مش للبيع.. والتهديدات ما بتخوّفني..

خرجوا.. أداروا محرّك سيّارتهم بنزق.. وغابوا في سواد العاصفة..

* * *

في تلك الليلة راقبت الطفلة والدها وهو يُخرج دفترًا وقلمًا ويكتب:

لا، لن أكونْ...

لا، لن أكونَ
وما خُلقت لأن أكونْ
قصبًا يرجّفه النسيم، وتستخفُّ به الرياحْ
ويذلّ في وجه الأعاصير الغضاب فيستباح
ويظلّ مرتجفًا، يقبّل، في المساء وفي الصباح
قدم الأعاصير الغضابْ
حتّى تَعَفّر بالترابْ
لا، لن أكون..
* * *
لا، لن أكونَ
كما يشاءُ لِيَ النصيح بأن أكونْ
غصنًا، يميل كما تميل مع النسيمات الغصون
لَدْنًا، يُسِفُّ وينحني، حتّى إذا عاد السكون
أضحى يطاول في السحابْ
هامًا تُعَفّر بالتراب
لا، لن أكون..
* * *

لا، لن أكون
وما خُلقتُ لأن أكونَ كما يريد لي الزمانْ
قصبًا يرجفه النسيم، ويستقيم إذا استكان
أنا في إباء السنديان، وفي عناد السنديان
فإذا الأعاصير الغضاب
دوَّت تطاول في السحاب..

إبعاد إلى حمص

- رجعت بكّير خير؟

سألته الوالدة..

- الأستاذ عيسى عصفور وأنا إجا نقلنا على حمص.. وباقي الشباب وزّعوهم على المحافظات.. نحنا مسافرين هلّق لندوّر على شقق نستأجرها..

- مسافر اليوم؟.. صارت الدنيا الظهر.. عا مهل لبكرا..

- النقل فوريّ..

كان الألم ينضح من صوته.. من عينيه.. من تقاسيم وجهه.. حياته أمضاها متنقّلًا بين الصحارى، وغربة في لبنان.. في القلب فراغ لايملؤه سوى الوطن.. يريد أهلًا.. بلدًا.. انتماءً، ملّ الترحال.. يريد ترابًا يغرس فيه جذوره..

عندما حصل على الماجستير من الجامعة الأميركيّة في بيروت بامتياز، انهالت عليه العروض والمغريات.. ولكنّه أبدًا لم يتخلّ عن حلم العودة إلى أرضه.. وعاد.. مدرسًا ثمّ مديرًا للثانويّة.. كان غيمة عطاء.. والأرض كانت خصبة.. راتبه كان للجميع.. وقته للجميع.. علمه.. أخلاقه.. كتبه.. وأنبتت الأرض زهرًا وقمحًا..

ولكنّ المنطقة كانت تحرث لزراعة الألغام.. فليرحل حرّاس الأرض عن الأرض.. وليُنفَ كلّ من قال "لا".. وسلامة عبيد قال "لا"..

* * *

شهور مضت ونحن في حمص.. أحبّ الراحل حمص، وأحبّه أهلها، وكتب في تلك الفترة قصائد رائعة منها: الخريف.

عاد الخريف

عاد الخريفُ
فللوريقات اصفرار وارتجافْ
ولهنّ في الوادي حفيفْ
مثل ابتهال الناسكين..
والغيم مرتعشًا يمرْ
ويهيم يرسم في الفضاءْ
صورًا يوشيها الضياءْ
والذاهبون إلى القطافْ
يتسابقون ويحلمون..
وعلى الدروبْ
همس الكواعب والطيوب..
وبأرض بيدرنا العتيقْ
ذهب يُكَوَّم أو عقيقْ
وعلى السطوح وفي السماءْ
وعلى شريط الكهرباء
أسراب رهبان صغارْ
يتجمعّون، يثرثرون..
وبهم إلى الدفء اشتياقْ
وبهم لهيب الذكرياتْ
لحلاوة الماضي القريبْ
للروض للعشّ الحبيب..

ومع الغروبِ
يرفرفون، ويرحلون..
فمتى، متى يأتي الربيعْ
وتعود معطرة الورود
وتعود أسراب السنونو
وبها إلى بلدي حنين.

حمص وحبّ للعاصي من أوّل نظرة

في حمص سكنّا بيتًا واسعًا جميلًا، فيه "أرض ديار"، وشجرة كبّاد عملاقة.. أصبح لنا أنا وأختي غرفتنا الخاصّة، بسقفها المرتفع، وشبابيكها الواسعة.. أثاث البيت لم يكن مناسبًا للبيت الفسيح، فقد كان مقتصرًا على سرير وخزانة بدرفتين، إضافة إلى بعض الفرش واللحف وأدوات المطبخ. غرفة الاستقبال استقبلت بضعة كراسيّ متواضعة من القشّ وطاولة الأستاذ، وعليها الراديو..

ولأنّ الانتقال جاء بعد افتتاح المدارس، فقد رفضت المدرسة الرسميّة قبولي، وكان ذلك من حسن حظّي، لأنّ المدرسة الخاصّة التي سُجّلت فيها، كانت غاية في الأناقة، ومستوى التعليم الراقي.. لم أعد أجلس في الصفّ، وأهرب بخيالي إلى فضاء الله الواسع، فقد وجدت في أسلوب المعلّمات، وغزارة المعلومات، ما أثار رغبتي بالتعلّم.. قالوا لي إنّني معفاة من دروس اللغة الفرنسيّة، لأنّ طلاّب مدرستهم يدرسونها من الصف الأوّل، لكنّني وجدت التحدّي ممتعًا، وأصبحت أداوم على دروس اللغة الفرنسيّة، مستمتعة بإيقاعها الجميل.. ساعدني في ذلك دراستي للّغة الإنكليزيّة في مدرسة الإنكليز.. وكم كنت فرحة عندما تعلّمت أغنية بالفرنسيّة:

Savez- vous plantez les choux

A la mode .... A la mode

راتب والدي في حمص أصبح لنا، ولم يعد يتفرّع إلى روافد قبل أن يصبّ في البيت.. واستمتعت بحياة رغيدة، بيتًا، وطعامًا، وملابس، ومدرسة..

كان الباعة المتجّولون ينادون على بضائعهم بصوت جميل ممطوط:

- الحزّة بفرااااااااااااانك.. الحزّة بفرااااااااااااانك..

نخرج لنرى ما الذي ينادي عليه البائع، فنجد البطّيخ مقسمًا إلى حزوز، ويباع "بالحزّة"!

- سلبين.. سلبين..

ونظنه ينادي على سمك السردين. نركض لنفاجأ بأنّه يبيع العكّوب..!

الجزر كان من مشترياتنا المفضّلة، فقد كان يأتي طازجًا نضرًا، بأوراقه الخضراء الغضّة، وألوانه الصفراء والبنفسجيّة.. وكان البائع يتفنّن في تحويل عربته إلى لوحة فنّيّة جميلة، مترعة بألوان بهيجة..

حمص.. بلد الفرح والوفرة والجَمال..

السمك كان يأتي من نهر العاصي طازجًا، ليتبّل بالأعشاب والبهارات، ويُرسل إلى الفرن القريب لشيّه على نار الحطب. وما إن تعود السمكة من الفرن، حتّى يكون "طَرَطور" الطحينة والحامض والثوم بانتظارها.

نجلس جميعًا حول سفرة فاخرة شكلًا وطعمًا، وأبخرة شهيّة تنادي قطط الحارة، فتتجمّع على السطوح، مرسلة توسّلاتها بمواء ممطوط..

بعد الظهر كنّا نذهب إلى نهر العاصي، مع أسرة الأستاذ عيسى عصفور.. ونجلس قرب الجسر الذي يؤدّي إلى الكلّيّة العسكريّة.

نتفرّج على أطفال يلعبون، وآباء يصطادون السمك.. ونساء يتسامرن، وعيونهنّ لا تغفل عن مراقبة الأطفال..

كنتُ أعبُّ من الألوان الجميلة حولي.. الحشائش النضرة.. الأشجار.. الخضار.. وبين البساتين كان ينساب جدول يتغيّر لونه كلّ يوم، فهو مرّة برتقاليّ، ومرّة بنفسجيّ، ومرّة بلون زهريّ بهيج.. الأشجار العملاقة والطيور المغرّدة وذلك الجدول الذي يعزف على أوتار قوس قزح.. كلّ

ذلك كان يحملني إلى عالم خياليّ جميل.. وقد خاب أملي عندما علمت أنّ هذا الجدول لم يكن سوى بقايا أصبغة، من معمل مجاور يُلقي بمخلّفاته إلى ماء النهر..

كم سعدت عندما ذهبت مرّة إلى النهر، ومعي زورق من ورق، وجلست أستعيد القصيدة التي تعلّمتها في ذلك اليوم:

أيّها النهر لا تَسِرْ وانتظرني لأتبعكْ
أنا أخبرتُ والدي أنّني ذاهبٌ معك
فانتظرني لأتبعك
أنا أحضرت مركبي هو يا نهر من ورق
ادنُ يا نهر إنّني لستُ أخشى من الغرق
فانتظرني لأتبعك

لم أكن أملُّ من التحديق في هذا النهر الجليل الجميل، ينساب هادئًا وعميقًا، يمنح الحياة بسخاء دون ضجيج.. تذكّرت سواقي عين عنوب في الشتاء.. تنحدر هدّارة مؤذية أحيانًا عندما تدخل دون إنذار إلى بيت جدّي، وينطلق الصوت للنجدة، فيأتي الجميع لتحويل مجرى الساقية بعيدًا عن البيت. أشهر وتجفّ الساقية تاركة دغلا من العلّيق..

علمت أنّ هذا النهر لايأخذ إجازة صيفًا أو شتاء، بل يسير متمرّدًا فريدًا أبيًّا، من الجنوب إلى الشمال، في حين أنّ أنهار سورية ولبنان تنساب من الشمال إلى الجنوب.. وأحببته أكثر عندما قرأت أبيات والدي:

يا نهر ذنبك في إبائك بعض ما لي من ذنوبِ
ما زلت مثلك عاصيًا والطيب ينبت في دروبي

كانت أشـهرًا جميلة في بلدة جميلة أرضًـا ونهرًا وسـكانًا.. لـولا أن وصـلتنا أخبار من السـويداء، أنّ الرئيس قد أرسـل قوّات من الجيش، لقمع ما اعتـــبره تمرّدًا على حكمـه.. ولولا وعي الجيش، ضـبّـاطًـا، وجنودًا، ورفضـهم تنفيذ الأوامر، لكانت المذبحة قد قضـت على الكثيرين.. كان هناك خســائر وســرقات وتخريب، لكنّها كانت فرديّة ومحدودة، ولم ينجرَّ الجيش إلى فتنة طائفيّة كما كان مخطّطًا لها..

صديقة من حمص

مدّت يدها الصغيرة وقالت:

- تفضّلي..

نظرت إلى اليد الممدودة باتّجاهي، ورأيت عرس ألوان على يدها البيضاء.. حبّات صغيرة بألوان قوس قزح، تأمّلت الحبّات بنشوة، محاولة أن أتخيّل كيف سيكون طعمها.. امتدّت يدي لتأخذ بعفّة نفسٍ شديدةٍ حبّة واحدة، وضعتها في فمي.. وذابت الشوكولاتة موقظة آلاف الحليمات الذوقيّة التي كانت تلفظ أنفاسها الأخيرة من قلّة الاستعمال. بدأت الحليمات الذوقيّة على لساني تصيح مطالبة بالمزيد، وأنا أحاول عبثًا أن أستبقي الحبّة الصغيرة، محاولة أن أرضي بها مجاعة مزمنة!.

هل لاحظتْ صاحبة اليد الصغيرة لهفتي إلى المزيد، هل سمعت صوت همهمتي مثل صوت قطة جائعة تتلذّذ بقطعة لحم؟ امتدّت يدها من جديد وقالت:

- خذيهن كلهن..

ولم أدرِ كيف ضعفت، ومددت يدي لتفرغ فيها كلّ ما كان معها من حبّات ملوّنة..

عُدت إلى البيت في ذلك اليوم، وأنا لا أدري، أأسترجع دهشة الطعم الذي لم أذقه منذ زمن، أم ذلّ اليد الممدودة التي لا تليق بابنة الأستاذ.. خصوصًا وهي في حمص.. وحمص مدينة ليست مدينتها..

في اليوم التالي أخذت قطعتين من الصفوف، حضّرتهما والدتي، وغطّتهما بالجوز واللوز الذي جاءنا هديّة من لبنان، ركضتُ باتّجاه الصغيرة، ومددت يدي بالصفوف.. تناولت واحدة، وسمعتها تهمهم وتقول بعفوية وبساطة شديدة:

- همم هممم.. شو طيّبة بتعطيني الثانية؟

وشعرت بارتياح.. لم تعد يدي يد متسوّلة ذليلة.. أصبحت يد صديقة تأخذ وتعطي.. صار بإمكاني أن أسترجع طعم حبّات الشوكولا، دون أن يرافقها حسّ المهانة..

ستّون عامًا مضت، ونسيت طعم الحبّات الملوّنة.. ولكنّني لا أزال أذكر بكلّ الودّ والامتنان طفلة صغيرة في حمص، أحسّت بطفلة أخرى من السويداء، وقالت لها:

- تفضّلي.. خذيهن كلّهن..

من دمانا

كان الوالد عائدًا من عمله عندما خُيّل إليه أنّه يسمع قصيدة "من دمانا" تنطلق من الإذاعة، وهي القصيدة التي كتبها عام 1943 عندما قصفت الطائرات الفرنسيّة مبنى البرلمان..

هل هي قصيدته فعلًا؟.. وصل إلى البيت مسرعًا وفتح الراديو، وكان صوت المذيع يصدح:

"فلقد عشنا كرامًا.. وسنبقى أبد الدهر كراما.."

كانت القصيدة تذاع مرّة بعد مرّة، بين البيان والبيان.. وكانت سورية تهدر بصوت واحد:

من دمانا

من دمانا، أيّها السفّاحُ..
من دمع اليتامى والأيامى
أترع الكأس مداما..
وأدرها بين أشلاء الضحايا..
واستغاثات الثكالى والسبايا
وزئير المدفع الطاغي..
وأنّات الشظايا..
أترع الكأس وناوله الندامى
من دمانا، أيّها السفاح
من دمع اليتامى والأيامى

* * *

أمطر الشام حديدًا ولهيبا
واستبح فيها هلالًا وصليبا
واذبح المرضى
ولا تخش عذولًا أو رقيبا
عذّب الأسرى ونكّل ما تشاء
وإذا الرعب تولاّكَ
وأضناك العياء
من دمانا، أيّها السفاح
من دمع اليتامى والأيامى
أترع الكأس مداما
* * *
من دمانا، أيّها السفّاحُ
من دمع اليتامى والأيامى
أترع الكأس مداما..
فلقد عشنا كراما
وسنبقى أبد الدهر كراما..

وينطلق صوت المذيع من إذاعة دمشق هادرًا: "يسقط الديكتاتور".. وألوف النسخ من القصيدة مطبوعة داخل إطار ملوّن بالأحمر والأخضر، تنتقل من يد إلى أخرى على امتداد سورية.

عدنا إلى السويداء!

بعد عودتنا من حمص، استأجرنا بيتًا مكوّنًا من جناح للاستقبال، ومكتب للوالد، وغرف نوم وطعام و"أنتريه" وممرّات.. إذا استخدمنا بعض الخيال والديكور المسرحيّ! فغرفة الاستقبال كانت قلّما تخلو من الضيوف، بعد أن عُيّن الوالد مديرًا للثانويّة، ثم مديرًا للمعارف (التربية)، والغرفة الصغيرة الوحيدة كانت هي المسرح، حيث يتغيّر الديكور باستمرار!.. في الليل تكون الغرفة لنوم الجميع.. هي للأمّ والأب وثلاثة أطفال.. أيضًا لنمّور، الهرّ الذي يختبئ في الزاوية إلى أن يطمئنّ إلى أنّ الوالدة قد نامت، فيتسلّل إلى فراشنا الدافئ.

في الصباح تطوى اللّحف، وتوضع في زاوية الغرفة.. المشهد الثاني تتحوّل فيه الغرفة إلى غرفة طعام، في الوسط طاولة بارتفاع 25سم، يوضع عليها الطعام، ويتحلّق حولها الجميع.. ينتهي الفطور، وتتحوّل الغرفة إلى غرفة معيشة واستقبال. الجيران والآقارب يجلسون على نفس الفرش التي هي للنوم ليلًا، والتي هي للعب، ولجولات المصارعة الحرّة بين الأطفال، وهي أيضا لكتابة الوظائف ونحن منبطحون على بطوننا!. في الشتاء تستخدم الغرفة مكانًا للاستحمام قرب المدفأة، فالمطبخ الذي لا يتجاوز عرضه المتر وربع المتر، والتواليت، كانا مسقوفين بالتوتياء، وعندما تتغطّى ألواح التوتياء بالثلج، يصبح الدخول إليهما تعذيبًا حقيقيًّا، وقد يكثر أحد الأطفال من شرب السوائل مساء فيقع المحظور، وتصبح الغرفة أيضًا "حمّامًا!"..

وعندها يتّهم كلّ واحد من الأطفال من هو أصغر سنًّا. حتّى تُلصق التهمة أخيرًا بالهرّ نمّور.. أو تقيّد الحادثة "ضد مجهول"!.

وجاءت لتشـــاركنا هذه الغرفة الوحيدة عجوز تبدو كأنّ بينها وبين الفرح عداوة!.

كنّا أطفالًا نريد أن نغنّي، أن نصـخب، أن نلعب، أن نتســلّى بالعراك الودّي الذي كان يطلق عليه "معارشـة بسـينات!" وكانت العبارة التي لا تملّ من تكرارها:

- راسي عبيوجعني يا ستّي.. كِنّو يا ستي.. بدي إشتكي عليكن لأمّكن وبيّكن..

كنت أمتعض وأسكت.. وكانت أختي الطفلة تهدّدها قائلة:

- إذا بتشتكي علينا للبابا والماما بدي كبّك (بالبغميل)..
- شو هذا البغميل يا ستّي؟
- ما بتعغفي شو البغميل.. هذا البغميل!.

وتشير إلى برميل مملوء بالماء موضوع أمام البيت!

لم يكن قد تسـنّى لنا أن نتعرّف إليها عن قرب، فقد كانت تقيم مع ابنها العازب خارج السويداء، وبعد أن تزوّج جاءت للإقامة معنا..

كم كان وجودها مكربًا ومزعجًا لنا في البداية، فهي فضــلًا عن مرضــها وشــكواها الـدائمـة، كـانـت تســتحوذ على حـبّ الوالـد والوالـدة واهتمامهما، فقد كانا يعاملانها وكأنّها قدّيســة.. وكم كنّا نشـعر بالغيرة منها!.

وجاء يوم وقالت إنّها لا ترى جيّدًا بعينيها، وبعد أن فحصـها الطبيب قرّر أنّها مصـابة بالمياه الزرقاء وبحاجة لعمليّة.. لا أدري من هو (فاعل الخير) الذي قال لها إنّ مشـفى الجامعة الأمريكيّة في بيروت هو المكان الأفضـل لإجراء العمليّة.. وكرّرت الجدّة العجوز ما سـمعته، مبدية رغبتها بإجراء العمليّة في مشفى الجامعة..

من أخبرها عن الجامعة الأميركيّة لم يقل لها إنّ مشـفى الجامعة الأميركيّة هو لأصحاب الملايين، وليس لأصحاب الرواتب، خاصّة إذا كان راتبًا سوريًّا!

ولكن هل كان للوالد والوالدة أن يكسرا بخاطرها؟

الوالد استدان، وكان علينا أن نُعاني سنوات لتسديد الديون.. وإسوارة ذهبيّة كانت في يد الوالدة، بيعت من أجل المسـاهمة في تكاليف العمليّة.. كنّا نسـمع الكثيرين يقولون للوالد والوالدة إنّهما يحمّلان نفسيهما فوق طاقتها.. وكنّا نشعر بالمزيد من الامتعاض منها، وقد زادت وضعنا الماديّ الصعب ديونًا طائلة..

لم أكن أفهم سرّ هذا التقديس لعجوز مريضة نكدة متطلّبة.. ولكنّني بعد أن كبرت عرفت قصّتها، وعلمت أنّنا مهما فعلنا لا نفيَ هذه القدّيسة حقّها في التكريم.. وسأروي لكم قصّتها.

عندما ولدت شريفة، التي ستصبح أمّ نايف فيما بعد، أقيمت الأفراح والولائم أربعين يومًا، فقد كان الشيخ منصور يقترب من الستّين، وهو لا يزال دون ذُرّيّة.. ولكنّ الله كريم.. صحيح أنّه كان يأمل أن يكون المولود صبيًا.. ولكن أن يكون الوارث "شـقفة بنت" يظلّ أهون من أن تذهب الثروة الطائلة إلى الغرباء!.

عاشت في قصر مع أمّها وأبيها يحيط بها خدم وحشم، وصندوق مليء بأوراق تثبت ملكيّتها لمساحة هائلة من جبل لبنان.. ولكنّ الطفلة كانت كتلة من الأحاسيس والمشاعر المرهفة.. لم يكن يعنيها قصور أوخدم أوصندوق.. كانت تريد إخوة تسامرهم، تلعب معهم، تشكو متاعبها لهم.. ولكنّها كانت وحيدة.. أولاد العاملين في القصر لا يجرؤون على اللعب معها، أو حتّى على مناداتها باسمها، كم كانت تشعر بالحزن لما تلمحه في عيونهم من حسد وحقد وخوف.

لا تريد أوراقًا، تريد إخوة يملؤون قلبها العامر بالحبّ..

لا تريد أوراقًا، تريد رفاقًا تلعب معهم، وتكون واحدة منهم وليست "الستّ".. ما أصعب أن يعيش الإنسان دون اسم..

كم تمنّت لو كان عندها أب شابّ قويّ، يشعرها بالحماية..

لا تريد أوراقًا.. تريد أبًا..

كان عندها أمّ شابّة، ولكنّها مشغولة طوال الوقت في تسيير أمور الزوج المريض..

لا تريد أوراقًا.. تريد أمًّا تغنّي لها.. تمسّد شعرها.. تحكي لها حكاية قبل النوم..

حتى الأمّ حُرمت منها الطفلة بعد أن توفّي الأب، ولم يكن من المقبول أن تبقى الأرملة الشابّة الجميلة دون زواج، فتزوّجت شابًّا من آل الفقيه.. وبقيت الطفلة دون أب.. دون أمّ.. دون إخوة..

وحيدة كانت على القمّة.. والقمّة برد وخوف ووحدة وضباب.

بعد اثني عشر عامًا جاءهم عليّ خاطبًا، وصاح الجميع باستنكار شديد: "حَوراني؟".. كان عليّ شابًّا متعلّمًا وسيمًا، ووالده وجيه، وحالتهم الماديّة ممتازة.. ولكنّ الجميع كانوا يصيحون "حَورانيّ؟".

بعضـــهم كان يصـــيح احتجاجًا على هذه (الإهانة)، ناســـين أنّ قمح حوران أنقذ كثيرًا من اللبنانيّين من الموت جوعًا.. بعضٌ آخر كان يعزُّ عليه أن تذهب الأرزاق التي لا تأكلها النيران إلى الحَوراني.. والقســـم الأكبر كان يصيح لمجرّد أنّه رأى الآخرين يصيحون!.

جاءت العروس الطفلة إلى الســـويداء، ووجدت في أمّ زوجها ســـيّدة حنونًا قديرة قويّة الشكيمة، أفهمتها أهمّيّة المضافة في بيوت الوجهاء. فهي يجب أن تبقى مفتوحة لكلّ قاصـــد.. والضـــيافة لا تكون عربيّة أصيلة إلا بالذبائح.. كانت المناسف حدثًا يوميًّا عاديًّا، فالخير والحمد لله كثير، أبو علي حسين عبيد كان رجلًا معروفًا، وعليّ لا بد أن يحرص على إبقاء مضافة والده مفتوحة..

بقي صـــندوق الأوراق في وصـــاية العائلة في عاليه، وكانوا يُرســـلون إلى شريفة إيرادات العقارات العديدة والمتنوّعة..

كانت الطفلة تلعب مع العريس كما يلعب كلّ الأطفال.. ولعبا لعبة ظنّتها الطفلة "حديمسة ومنيمسة"، وإذا بها بعد تسعة أشهر تصبح أمّ نايف!.

أصـــبحت الطفلة أمًّا لطفل، وتفتّحت براعم الحبّ في قلبها الكبير، وتحوّل الطفل الصغير إلى عشق حياتها، أصبح هو الأب والأمّ اللذين حُرمت منهما وهي طفلة. أصـــبح الأخَ والأخت اللذين لم تعرفهما في طفولتها.. أصـــبحت عيناه نافذتين تطلّ منهما على بســـاتين حبّ وســـعادة.. كان حبًّا أفرغت فيه خزائن قلبها وعواطفها.. كبر الصـــغير وأصـــبح له إخوة وأخوات، وامتلأت الدار بالبنين والبنات، ولكنّه بقي هو حبّها الأكبر.. عندما أرسله والده إلى إسطنبول للدراسة في أفضل المدارس وأرقاها، شـــعرت كأنّ افتراقها عنه ســـكّين ينغرس في قلبها..

كانت تعدّ الأيّام والساعات تنتظر عودته. وكيف لها أن تعرف ما الذي ينتظره..

أكمل الشابّ دراسته وعاد، وكم فرحت بلقياه من جديد.. أصبح نايف زينة الشباب، والوريث الذي سيحمل الراية، ويستمرّ في فتح المضافة، لتبقى منارة ثقافة، وملاذًا لكلّ محتاج.. واختاروا له شابّة جميلة من بيت كريم.. أنجبت له طفلًا أصبح رفيقًا لأعمامه الذين لا يكبرونه بكثير..

ما كانت لتتخيّل ولو في أسوأ كوابيسها أن يأتي من يقول لها: "الله يقدرك على الصبر.. نايف استشهد بمعركة السويداء." وما كان سيخطر ببالها أن يأتي من يعزّيها بابنها الشهيد رشيد، ثمّ بابنها سلمان..

جدة قدّيسة

بدأنا نعتاد على الجدّة ونحبّها.. لم تكن تتكلّم كثيرًا عن نفسها، لكنّنا عرفنا قصّة حياتها الملحميّة.. عرفنا كيف تفهمت أهداف الثورة، وآمنت بها، ودعمت زوجها بكل إمكانيّاتها.. لم تُمانع وهي تشاهد أملاكها الشاسعة تباع من أجل تمويل الثورة، بقيت مؤمنة بقضاء الله، متصبّرة برغم جراحها الكبيرة التي بقيت تنزف إلى آخر يوم من حياتها، عندما قدّمت للثورة ابنها البكر نايف.. وابنها الآخر رشيد الذي اعتقله الفرنسيّون، ودسّوا له السّم، فتوفّي بعد خروجه من المعتقل بفترة قصيرة، واكتملت مأساتها بخسارة ابنها الثالث سلمان..

قدّمت أمّ نايف الكثير، ولم تبخل بمال أو بوَلَد، لكنها أمّ، ومن واجبها أن تحتفظ بجزء من الثروة الخياليّة لمن بقي من أولادها..

* * *

"الأبناء ليس لهم مستقبل في ظلّ وطن محتلّ، يلاحَق فيه الشريف والوطنيّ، ويحكمه الخونة والجواسيس.." هكذا كان يفكّر أبو نايف.. "الثورة سوف تنتهي، وإذا كان أبناء الثوّار فقراء وجهلة، فلن يتمكّنوا من الحفاظ على استقلالهم، وسيأتي الخونة والجواسيس ليمارسوا عليهم استعمارًا اقتصاديًّا وثقافيًّا.. لا بدّ من التفكير بما بعد الثورة.. ثم إنّها أمّ، ومن حقّ أولادها عليها أن تضمن مستقبلهم.." هكذا كانت تفكّر أم نايف..

تقلّصت الإعانات المقدّمة للثوّار، ولم يعد هناك بدّ من بيع كل ما يباع من أملاك.. لم يبقَ لأمّ نايف من أملاكها إلاّ نزر يسير، لم يجد مشتريًا..

لم تستسلم أمّ نايف لليأس، بل أرسلت أبناءها وحفيدها إلى لبنان، ليدرسوا على نفقة بعض مؤيّدي الثورة، وكانت تتخيّل ما يمكن أن يعانيه أطفال غرباء، في بلد غريب..

كيف لقلب الأمّ أن يحتمل؟

جاءت إلى أبو نايف قائلة:

- يا بو نايف أنا ما فيّي أترك ولادي لحالن بلبنان، بدّي روح لعندُن..
- يرجعو عالسويدا، ويدرسو هون..
- مدارس لبنان أحسن، وأنا بدّي ولادي يدرسو بأحسن مدارس وجامعات..
- من وين والثورة أكلت الأخضر واليابس؟
- الله بيرزق!
- بدّك تتركيني وتروحي؟ أنا رجّال معروف، وما فيّي اترك بيتي بلا نسوان..
- وقفت معك بالحرب.. وبالهجيج.. هلّق لازم وقّف مع ولادي.. إنت ببلدك وبيتك وبين أهلك.. ولادي لحالهن.. إذا بدّك تتجوّز إنت حر..

كانت أمّ نايف قد رافقته إلى الصحراء، وعانت على مدى سنوات جوعًا وعطشًا وقيظًا، ولم تتخلّ عنه لحظة واحدة.. ولكنّها الآن مسؤولة عن أطفالها.. وكما قامت بواجبها تجاه زوجها، لا بدّ أن تكمل الرسالة مع أولادها..

عادت أمّ نايف إلى لبنان، وبعد أن كانت أكثر نساء لبنان ثراءً، لم يعد عندها سوى بعض ممتلكات صغيرة، لا تكاد إيراداتها تقيم أودهم.. ولكنّ أمّ نايف لا يمكن أن تسمح لنوائب الدهر أن تحطّمها.. ناضلت وعانت وكافحت.. ونجحت في تعليم أولادها وحفيدها ابن الشهيد نايف.. كتب عنها ابنها بعاطفة صادقة جيّاشة في قصصه القصيرة: ذكريات الطفولة "هديّة أمّ"، و"قبو المقاطيع"..

روت لنا الجدّة كيف جاءتها عجوز بصحن طعام فاسد، وقالت لها بلؤم وتشفٍّ:

- يا شريفة.. خذي هالصحن طعمي ولادك.. هه هه بتكونو جيعانين..

نظرت أمّ نايف إلى الوجه الكالح والعيون الحولاء الغائرة التي تشبه كهفًا تخرج منه وطاويط حقد ونذالة..

هل يمكن أن تنسى هذا الوجه الشيطانيّ؟ كانت خادمة في قصر والدها. شابّة لا يعرف أحد لها أصلًا أو منبتًا، لم تكن تجرؤ على لفظ اسم شريفة دون أن يسبقه لفظ "الست" برغم أنّ شريفة كانت طفلة..

كم شاهدتها وهي تسرق من مؤونة القصر، وكانت الطفلة تتغاضى عنها، وتقول في نفسها لعلّها مضطّرة إلى ذلك لإطعام أولاد جياع، أوشراء هديّة لشخص عزيز على قلبها.. كانت اللصّة تعلم أنّ الطفلة ضبطتها المرّة تلو المرّة.. وتَسامُح الطفلة كان يشعرها بمزيد من الحقد.. فالصغيرة لم تكن تملك مالًا فقط تحسدها عليه، ولكنّها تملك إنسانيّة وتسامحًا وخلقًا يجعل اللصّة تزداد كرهًا لها..

اللصّة لم تكن تسرق لتطعم أطفالًا، بل لإنشاء تجارة في كلّ شيء يمكن أن يدرّ عليها مالًا، فباعت واشترت.. أراضي.. عقارات.. ضمائر.. شرفًا.. وأصبحت ثريّة تحاول غسل عار ماضيها، بتوظيف أبواق يسبّحون بحمدها، ودرّبت أولادها ليسيروا على خطاها.. وهل هناك أسهل من السياسة التي تعطي للّصّ حصانة ومكانة؟

أمّ نايف ابنة أصول، ولا تنزل إلى مستوى مهاترات رخيصة مع إنسانة رخيصة.. ولكنّ ردّها كان أن علّمت أولادها ليصلوا إلى أعلى المراتب، وربّتهم على الأخلاق والإنسانيّة والوطنيّة.. ربّت للوطن أولادًا يفخرون به ويفخر بهم..

سيأتي يوم، ويضع ابنها سلامة أوّل معجم صينيّ - عربيّ كبير، عمل على إنجازه أكثرمن عشر سنوات، عملًا يوميًّا مضنيًا.. وسيكتب الشعر والرواية والقصّة القصيرة والتاريخ. ويضع منهاجًا كاملًا لقسم اللغة العربيّة في بكّين، يشمل عشرات الكتب الأدبيّة واللغويّة القيّمة.. سيترجم نثرًا وشعرًا، وسيترك تراثًا إنسانيًّا ومعرفيًّا وأدبيًّا قلّ نظيره.. وحياة أشبه بحياة القدّيسين..

كانت خير زوجة.. خير أمّ.. خير جدّة..

* * *

التاريخ ظلم أبو نايف.. يذكرونه بكلمات قليلة في عيد الجلاء، ثم يطويه النسيان في الأيّام الباقية.. ولكنّ التاريخ لا يذكر أمّ نايف.. فالتاريخ كلمة مذكّرة.. ولا يصحّ للتاريخ أن يخطئ في القواعد!

هديّة أمّ

إذا كان التاريخ لم يخلّد اسم أمّ نايف، فابنها الأديب سلامة عبيد خلّدها في واحدة من قصصه الرائعة في كتاب "ذكريات الطفولة".

* * *

"يا ستّ أم نايف أنا نازل اليوم للبلاد[1]، إذا أحببتِ أن ترسلي أيّ شيء للولد، بيتنا بجانب المدرسة، الباب بالباب".

كانت زيارة الشيخ باز مفاجأة لأمّ نايف، وكان تلطّفه بحمل الهدايا إلى الولد في المدرسة مربكًا لها ومحرجًا، إلاّ أنّها تجلّدت كعادتها أمام المصائب.. مدّت يدها إلى "عبّها"، ثمّ أخرجت بعد برهة من التفتيش شيئًا وضعته في يد الشيخ، وهي تقول: "سلّم عليه..".

ولكنّها -على خلاف عادتها في التأدّب- نسيت أن تشكر حامل الهديّة. وفي عاليه استدعى باز "البدويّ الصغير"، ووضع في كفّه شيئًا صغيرًا يلمع، ثمّ ربّت على كتفه وهو يقول: "أمّك بتسلّم عليك.."

ضممتُ يدي على الهديّة، وانطلقت إلى مهجعي دون أن أودّع الشيخ، وأعتقد أنّني نسيت أيضًا أن أقول له شكرًا.. دفنت رأسي في السرير، شبه محموم، وراحت الدموع تنساب بسكون غزيرة، محرقة.. كانت أمّ نايف تودّ بلا شكّ أن ترسل إلى ولدها شيئًا من القضامة والزبيب أو علبة راحة ممسّكة، أو كنزة صوف.. ولكن..

الدار مصادرة، صادرتها السلطة المحتلّة، وقرّرت نسفها، كما نسفت أمثالها من الدور، إلاّ أنّها عادت فاكتفت بتهديم قسم منها،

---

(1) ظلّت كلمة "البلاد" في جبل حوران والسويداء يراد بها لبنان، وخصوصًا "الشوف"، لأنّ النازحين إلى جبل حوران كان أكثرهم لبنانيّين من الشوف.

وتحويله إلى ساحة، عندما رأت أن تستفيد من الغرف الواسعة، لتجعل منها مدرسة تنشر فيها، وعلى طريقتها لغتها وأهدافها..

صادرتها بلا أيّ تعويض أو أجرة..

الأملاك -وإن كانت قليلة ضئيلة المردود- مصادرة أيضًا، لا يسمح لنا حتّى بالتقاط السنابل الساقطة في أرجائها..

المستودع السرّي تحت المضافة ــ الموزّع ــ الذي خبّأنا فيه أثمن أشيائنا؛ السجّاد والبسط والفرش، وصناديق الثياب والمؤونة، وكلّ ما لم نستطع أن نحمله معنا قبل أن نهجر السويداء المهدّدة بالاحتلال إلى القرى الجبليّة، ومنها إلى واحة الأزرق، فالصحراء.. هذا الموزّع الذي كنا نعلّق عليه آمالًا كبارًا وجدناه منهوبًا..

قال بعضهم: السلطة نهبت..

وهمس آخرون: لا تصدّقوا..

لا مورد، لا عمل.. لاجئون في غرفة من دار خالي أبو سليمان في حيّ القبو.. الجمل الذي حملهم من الصحراء باعوه، واشتروا بثمنه الكسوة الضروريّة للبنات، ومؤونة بضعة أشهر..

ليس هناك أيّ شيء يباع، أو يُرهَن..

كم كانت أمّ نايف تودّ أن ترسل شيئًا ما إلى ولدها مع الشيخ باز، إلاّ أنّ قلبها كان مليئًا مفعمًا، وغرفة لجوئها فارغة تصفّر.

كم تمنّت لو استطاعت أن ترغم تلك النفس الكبيرة على أن تستدين، ولو علبة راحة من أجل ولدها..

ولكنّها لن تستدين.. لن تستدين شيئًا لا تقدر على إيفائه..

هكذا كانت أفكاري تحوم حولهم في السويداء، عندما دقّ جرس العشاء، فدسست الهديّة تحت المخدّة ونزلت إلى مطعم المدرسة.

- كان الطعام شهيًّا تلك الليلة، وكان سخيًّا أيضًا.. ملأ لي واحد من رفاقي صحنًا عارمًا، وأنا في شبه ذهول.. مددت يدي إلى الرغيف، فأخذت منه قطعة ظلّت بين أناملي برهة.. أخذت الملعقة، دسستها في فمي.. لم أستطع أن أمضغ..

- أنت مريض؟

- مريض نعم..

كنت أتصوّر الأمّ وأطفالها في السويداء، بلا مورد ولا عمل، لاجئين في غرفة صغيرة واحدة. ماذا يأكلون في هذه الساعة التي تتماوج فيها، هنا، أبخرة اللحم، والرزّ والخبز الطازج أمام عينيّ وفي أنفي؟

تركت رفاقي يأكلون ويتهامسون، وعدت إلى فراشي أبكي بسكون، وأشدّ بيدي من جديد على قطعة صغيرة من فضّة، على الفرنكين اللذين حملهما الشيخ باز من السويداء إلى عاليه، هديّة من أمّ إلى ولدها.

أوّاه.. ما كان أقسى هديّتك، وما أمرَّها يا أمي..".

حكايات الجدة

نعود إلى الأطفال الذين لم يكونوا في ذلك الوقت يعرفون عن الجدّة سوى أنّها عجوز، تبقى معظم الوقت في فراشها، وبجانبها قفّة قشّ قديمة، تضع فيها بعض حاجاتها. كانت الوالدة تحاول أن تُغريها باستخدام قفّة قشّ جديدة وجميلة وأكبر حجمًا، ولكن ما كانت أمّ نايف لتتخلّى عن القفّة التي استضافت أغراض ابنها نايف عندما كان رضيعًا..

من حسن حظّ الأطفال أنّ البيت كان فيه باحة مسقوفة مشتركة مع أصحاب البيت، وكان حول البيت مساحات مزروعة بالأشجار، ولأنّ البيت المقابل للكنيسة على طريق قنوات كان نهاية التجمّع السكنيّ، وبداية حقول القمح، وأشجار السنديان؛ فقد كان يعطي الأطفال مساحة واسعة للّعب، بعيدًا عن شكوى الجدّة.. أولاد الجيران الذين يقاربوننا عمرًا كانوا من الذكور، وكانت الألعاب في معظمها ألعابًا صبيانيّة وحربيّة.. كنّا نتسلّح بما نجده من مسدّسات، وبنادق، واختراعات أخرى لأسلحة يحدّد مواصفاتها ابن الجيران الأكبر سنًّا.. لم يكن البلاستيك قد عرف طريقه إلى ألعاب الأطفال بعد، فكنّا نبحث عن عظام بعض الحيوانات.. فكّ الخروف هو مسدّس صغير.. فكّ الحمار أو البقرة هو سلاح أكثر فعاليّة..

أمّا السلاح الغامض المتعدّد المواصفات، فقد كان في يد القائد الذي يمكن أن يفتي بأن السلاح يخترق الجدران.. أو أنّه يسبّب إبادة جماعيّة للعدوّ..

وما كان بإمكان العساكر أمثالنا أن يعترضوا على ما يقوله.. كنّا أحيانًا نتمرّد، ويتمّ قمعنا بالجمش!.

ما كان أسعدنا عندما كان الأهل يذهبون في زيارة! تقفل الوالدة علينا الباب بالمفتاح، دون أن تعلم أنّ بإمكان طفلة في الثامنة، وأختها الأصغر سنًّا، التسلل إلى الخارج من كوّة المطبخ الصغيرة، والتحرّر من قيد أنهنّ بنات الأستاذ!.

بنات الأستاذ يجب أن يكنّ مهذبات، ولا يتضاربن بالحجارة مع أولاد الجيران، ولكنّنا كنّا نجد للمجامشة متعة ما بعدها متعة، فللتضارب بالحجارة أصول وآداب وقواعد.. فالجمشة يجب أن تسقط بعيدًا عن الخصم.. ويجب أن يبقى التجامش رياضة مؤدّبة، وغير مؤذية.. كنّا نتجامش ونحن نقف على بعد كاف، يضمن السلامة للفريقين. وفي أحد الأيّام كان طفل يراقبنا من الطريق.. طفل غبيّ وثقيل الظلّ، حاول مرارًا الانضمام إلى الشلّة ولكنّه لم يكن مرحّبًا به.. جاءت فرصته، أمسك بحجر كبير، وجّهه مباشرة نحو رأسي.. تفجّر الدم من رأسي وغطّى وجهي.. ظنّ أنّه نجح فيما أخفق فيه الآخرون.. بدأ يتراقص كالسعدان هاتفًا بشماتة:

- طرحتا.. طرحتا..

كاد المسكين يسقط أرضًا، عندما عاجله ابن الجيران بصفعة على وجهه وهو يصيح به:

- يكسر إيدك يا حقير، ولك هذي بنت جيراننا!.

برغم معاركنا الطفوليّة، كان يجمعنا ودّ وانسجام، وكنّا يدًا واحدة في مواجهة أيّ غريب!.

مدرسة الخنساء

أصبحت أذهب إلى مدرسة الخنساء. كانت مديرتها سيّدة حنونا لطيفة، يحبّها الجميع تلامذة ومعلّمات. كانت تنادي كلاّ منّا بعبارة: يا غالية.. (يا غالي)، وكانت نبرة صوتها تشعرنا بحبّها الأموميّ الصادق، وقلبها الكبير، كم فرحت عندما علمت أنّها قريبتنا، واسمها هندية عبيد، وأنّها كانت من المعلّمات الأُوَلْ في المحافظة، وأنّها نجحت في التدريس والإدارة، وجعلتنا نتعلّق بالمدرسة، فنشعر أنّها بيتنا الثاني..

خيّم الوجوم على البيت والمدرسة عندما علمنا أنّها مصابة بورم خبيث، وذرف الجميع دموعًا غزيرة حزنًا عليها عندما توفيت في عزّ شبابها، تاركة طفلة رضيعة يتيمة.. ومدرسة فقدت الأمّ بفقدانها..

المديرة المتميّزة اجتذبت أفضل المعلّمات، وكان منهنّ شابّة لطيفة رقيقة اسمها سلوى عزّام، ستكمل الشابّة دراستها، وتكون أوّل سيّدة من بنات المحافظة تحصل على الشهادة الجامعيّة، وتدور الأيّام لتنال لقب السيّدة المثاليّة، وهي فعلًا تستحقّه بكلّ بجدارة..

من الطالبات كانت إقبال الأطرش، صاحبة الصوت الأسمهانيّ الجميل.. وقد أورثت صوتها الرائع إلى ابنتها رشا رزق التي أغنت مكتبة الأطفال بأهمّ أغاني أفلام الكرتون، ولابنة أختها لبانة القنطار مغنّية الأوبرا العالميّة المعروفة..

برغم أنّنا لم نكن نعيش في بحبوحة، وبرغم بعض المتاعب والمشكلات، كانت حياتنا مقبولةً، خصوصًا عندما يتسنّى لوالدتي الوقت، لتذهب بنا في رحلة إلى الحرش، مع شلّة لطيفة مكوّنة من مشاركات دائمات، هنّ بنات خالتي أمّ ملحم، وعطيّة عبيد، وقد كانت أوّل قابلة قانونيّة تعمل في المحافظة، ومشاركات متغيّرات، هنّ أمّهات يشاركننا المشوار مع أطفالهنّ.

في الربيع كانت الشقائق الملوّنة تغطي المروج بألوانها البنفسجيّة والزهريّة، وكان حبّنا لها حبًّا سماويًّا قاتلًا، فقد كنا نقتطع رؤوسها الجميلة، مرتكبين جريمتنا بدم بارد، دون أن ندرك أنّ شراهة المواشي، وعبث الأطفال، سيحرمنا هذه الثروة النباتيّة الرائعة الجمال..

كانت مشاويرنا مع الوالدة وصديقاتها ممتعة، خصوصًا أنّ بنات خالتي أمّ ملحم، كنّ كثيرًا ما يحضرن كمّيّات كبيرة من الأطعمة الشهيّة، فشركة الكهرباء التي يملكها والدهنّ، كانت تؤمّن لهم دخلًا جيّدًا.. وكنّا نستمتع أحيانًا بأسياخ لحم مشويّ على الحطب، وحلويات من كلّ صنف وطعم، وفواكه من حديقتهم الواسعة..

ولكنّ استمتاعي الأكبر، كان في مشاوير والدي مع أصدقائه، وخاصّة أستاذ علوم رائع من حمص اسمه جميل عبيد..

أتذكّره بعدسته المكبّرة، ينحني ليتفحّص النباتات البرّيّة بحبّ وحنان.. يبدو كلّما أراد أن يأخذ عيّنة من نبتة كأنه يتمتم اعتذارًا بسبب إزعاجه لها، ثم يفتح "الجربنديّة" ليضعها بكلّ رفق مع باقي العيّنات..

الأستاذ جميل عبيد ابن حمص الذي أحبّ السويداء وأحبّته، عشق نباتاتها النادرة، وقام بجهد فرديّ لمسح الثروة النباتيّة في المحافظة

وتوثيقها.. وراســل بعض علماء الألمان الذين أكّدوا له أنّ المحافظة تمتلك ثروة هائلة من النباتات المهدّدة بالانقراض..

كان والدي والأســتاذ جميل يصــطحباني معهما في جولاتهما الطويلة.. ولا أذكر أنّني شــعرت بالملل أو التعب، مع أنّني لم أكن قد تجاوزت العاشــرة من العمر.. كنت أصــغي بكلّ انتباه إلى شــروحاته الممتعة الدقيقة.. وتنتقل إليّ عدوى هذا العشــق لهذه النباتات، وهاجس فقدانها، بسبب الجهل واللامبالاة..

عندما كان أحدهم يســأل الأســتاذ جميل إذا كان قريبًا لآل عبيد في السويداء، كان يجيب بصوت محبّ صادق: الأستاذ سلامي خيّي..

كانوا فعلًا إخوة، أحدهم درزيّ من الســويداء، والآخر مســيحيّ من حمص.. ولكن متى كانت الأخوّة والصداقة تهتمّان لهذه التقسيمات؟

من حكايات جدّتي

طحين.. وماء.. وعباءة الأمير عادل أرسلان!

لا شيء حولهم سوى الكثبان الرمليّة، والشمس الحارقة.. رجال ونساء وأطفال، ليس معهم سوى كيس طحين، وقربة ماء.. الجوع يكاد يقتلهم، وهم يركضون ساعات طويلة مبتعدين عن خيامهم..

يحتاجون إلى بعض الخبز.. يريدون أن يعجنوا وليس لديهم وعاء للعجن..

لا وقت لأخذ شيء من المخيّم.. لا حيوانات.. لا قدور.. لا خيام.. لا شيء.. كلّ ما تمكّنوا من حمله هو بعض الطحين والماء..

الفرنسيّون كانوا يريدون إبادتهم جميعًا.. إبادة المجاهدين ونسائهم وأطفالهم.. إذا أبيدت هذه النخبة الوطنيّة الواعية، فسيخضع الجبل، وتخضع سورية لهيمنتهم وطغيانهم.. كانوا يقصفون معسكرات الثوّار بوحشيّة، معتقدين أنّ الثوّار وعيالهم قد أبيدوا.. ليكتشفوا أنّ هناك من حذّرهم، وأنّهم ابتعدوا إلى مكان آخر.. وكان الفرنسيّون يأملون أن يقضي الجوع والعطش والحرّ على الثوار إذا أخطأتهم الغارات..

نعود إلى قصّتنا.. طحين وماء.. وليس لديهم وعاء.. كيف سيعجنون الدقيق بالماء؟

كان معهم الأمير عادل أرسلان، فاقترح عليهم حلًّا!

بسط عباءته الأميريّة.. وضعوا عليها الطحين.. وأضافوا الماء بالتدريج.. وأكل الثوّار في تلك الليلة خبزًا تمّ عجنه على عباءة أمير!.

الأمير الذي ترك حياة الرفاهية، وعاش في الصحراء مناضلًا بالسيف والقلم، كتب واصفًا حياتهم هناك:

في مهمهٍ قفرٍ كأنّ السما ... لم تروه بالقطر من عهد نوح
إنسانه ضبٌّ وأشجاره ... شيحٌ، وأصوات التغنّي فحيح
ينوح فيه الذئب مستوحشا ... وارحمتا للذئب فيما ينوح
وعصبةٍ عرباءَ فوق الثرى ... لكنّها من مجدها في صروح
أخرسها الصبرومن حقّها ... من طول ما عذّبها أن تصيح
كلّ رغيف حوله تسعة ... كأنّما صلّى عليه المسيح

كَرْمُ الحمّص

كان يومًا صـيفيًّا جميلًا.. أمام الباب جدّة تجلس على كرسـيّ صـغير، وأمـامهـا وعـاء من الحليـب.. وأطفـال يلهون حولهـا ينتظرون بتلّهفٍ انتهـاءهـا من إعـداد الجبن.. لم تكن الجـدّة تطيق الوقوف في المطبخ الصـغير المغطّى بلوح من التوتياء، كان بشـكل زنزانة، ليس فيها سـوى كوّة صـغيرة، تسـمح أحيانًا ببعض الضـوء والهواء، وتمنعهما في أغلب الأحيان..

عينا الجدّة كانتا تتنقّلان بين الحليب وابن الجيران الذي كان يمسـك جُندُبًا تعِس الحظ، يحاول إدخال قشّـة في فمه وهو يصـيح به: "يا جندب اشرب سيكاااااااارة".. والجندب المسكين يحاول بلغة الإشارة إفهام الطفل أنّه ليس من هواة التدخين!. وتتدخّل الجدّة:

- يا ستّي حرام اتركو.. هذا روح..

ويتركه الطفل مكرهًا، ويذهب لإعداد تسـلية أخرى.. علبة سـردين يربطها بخيط، ويربط الخيط بذيل هرّ مسكين، فإذا تركه ركض الهرّ، مرتعبًا ومبتعدًا عن صـوت القرقعة، والصـوت يلاحقه مثل وحش خرافيّ..!.

كانت هذه هي تسلية الأطفال قبل التلفزيون والآي باد!.

* * *

طريق قنوات كان في الخمسينيّات مقفرًا من السيّارات والمارّة، وعندما شاهدنا شيخًا جليلًا يسير باتّجاهنا، تعلقت الأنظار الفضوليّة به.. ما إن ألقى السلام، حتّى نهضت الجدّة لتستقبله بمودّة واحترام.. دعته للدخول إلى غرفة الضيوف ففعل.. بدأ بالسلام والكلام.. ثمّ ساد صمت ثقيل.. كان الشيخ يحاول أن يستجمع شجاعته، ليقول ما جاء من أجله، نقّل عصاه من يد إلى أخرى.. اتّكأ عليها برأسه وكلتا يديه، وهو يحدّق إلى الأرض بإحراج شديد.. ولكن كان لا بدّ من أن ينقل الرسالة التي حمّلها له الشيخ أبو نايف..

- يا ستّ إم نايف طلبي كبير.. بسّ الطمع بالغانمين أمثالك..

بدأ قلب الجدة يدقّ بقلق.. ماذا وراء هذه المقدّمة؟

- مش عارف شو بدّي قلّك.. أنا حمّلني الشيخ بو نايف رسالي، وإنتي حرّة تقبلي أو ما تقبلي..

ازداد القلق والتوتّر..

- إنتي أكثر الناس معرفة بأبو نايف، مابيقدر يكفّح قاصد، وقدّيش نصحناه إنّه ما يحمّل نفسو أكثر من قدرتو.

وتساءلت الجدّة بينها وبين نفسها.. ترى ما المطلوب منّي الآن؟

- أبو نايف عم بيقول إنّو الناس قدّمت للثورة وللوطن المال والولد وما بخلت.. معقول يتركهم ليتبهدلوا هم وعيالهم من الفقر والحاجي؟؟ معقول يقول لهم: "أنا ببيتي وعندي راتبي التقاعدي وإنتو اصطفلو؟ هيك الوفا؟ هيك الأخلاق؟ ما بتخلّى عنهم شو ما صار."

- رهن بيتو من جديد؟

- رهن كرم الجبل.. أمّا البيت.. عندو ولاد زغار، وإذا خسروا السقف فوق روسهم وين بيروحو؟.. المشكلة مش بسّ برهن الكرم.. صار عليه ديون كثيرة للتجّار أكثرها لأشخاص كان يبعثهم ليأخذو مونتهم واحتياجاتهم وتتسجَّل بالدفتر على إسمو.. المبلغ صار كبير.. وأصدقاؤه ما عادو قادرين على كلّ هالنفقات..

- شو بقدر أعمل؟؟ بقي شي بلبنان ما انباع؟ حتّى قصر أهلي باعو بدون رغبتي.. كنت بدّي خلّي شي لأولادي بَس كلّ شي ضاع، وذقنا المرار من العوز والتعثير..

وكرّرت بصوت خفيض وكأنّها ترسل شكواها للأرض والسماء:

- ضاع كل شي

* * *

صمت الشيخ صالح طويلًا.. هو يعلم كلّ ذلك، لكنّه وافق على نقل رسالة ، ولا مناصّ من أن يفعل..

- بدّو يسألك إذا بالإمكان تبيعي كرم الحمّص..

صمتت الجدّة.. وشعر الشيخ صالح أنّه قد ألقى على كتفيها همًّا كبيرًا، فاستأذن بالانصراف قائلًا لها:

- فكري بالموضوع.. وأنا تحت علم منك..

* * *

دخلت الجدّة، واستلقت على الفراش، وغطّت رأسها باللّحاف.. كان الأطفال يراقبون، وكلّ همّهم الحصول على بعض الجبن ليأكلوه، دون أن يسمعوا تأنيب الوالدة: "بلا خبز ما بيشبّع!" الجدّة كانت تترفّق بحالهم، وتناولهم قطعًا وافرة من الجبن، يركضون بها ليأكلوها بتلذّذ، بعيدًا عن أعين الوالدة!.

ما كان الأطفال ليلاحظوا صوت النشيج الذي تحاول الجدّة خنقه باللّحاف.. ولا جسمها المنتفض بألم وحرقة.. أكملت الوالدة عمل الجبن.. وحاولت أن تفهم من الجدّة ما حصل.. ولكنّها بقيت صامتة ترفض الكلام أوالطعام.. تطلب بين حين وآخر بعض الماء، تعبّه عبًّا، وكأنّها تحاول أن تطفئ نارًا مستعرة في أحشائها..

في اليوم التالي استيقظ الجميع، وكانت الجدّة قد اختفت..

بحثوا عنها في كلّ مكان.. لم يتركوا دارًا تزورها أو لا تزورها إلا سألوا عنها..

لا أحد رآها.. لا أحد يعرف أين ذهبت..

* * *

كرم الحمّص؟.. هو ليس كرمًا.. ترابه يحمل قلب أمّ.. وأذن صديق.. يحمل زند أب، وطفولة ابن.. كان حبًّا من النظرة الأولى.. عندما شاهدت تلك الأرض عشقتها، وأصرّت على شرائها؛ لم يكن فيها شيء مختلف للناظر، ولكنّ الستّ أمّ نايف شاهدت ما غاب عن أنظارالآخرين.. لم يكن قلبها فقط هو الذي تعلّق بالأرض، ولكنّه كان حسن تقديرها وتخطيطها للمستقبل.. هذا الكرم يطلّ على حدود البيوت السكنيّة، والسويداء لا بدّ أن تتوسّع ويصبح الكرم في قلب المدينة، ثمّ إن البناء يلاحق الأنهار، أو الطرق الرئيسيّة، والكرم واسع

يمتدّ بين طريق إزرع الذي يؤدّي إلى دمشق، وطريق شهبا التي يُشاع أنّها سوف تصبح الطريق الرئيسيّة إلى دمشق..

كان لها في لبنان أملاك شاسعة، لم تشاهدها في حياتها، ولا تعني لها شيئًا، بل على العكس كانت ترى في عيون الناس حسدًا وحقدًا عليها.. أمّا هذه الأرض، فهي جزء من قلبها.. عندما تحزن أو تغضب تذهب مع أولادها إلى كرم الحمّص، يخلعون أحذيتهم، ويتوحّدون بتربة مباركة، تدغدغ أقدامهم مثل أمّ.. يشعرون بها وقد حملت عنهم همومهم، وعادوا سعداء منشرحي الصدور.. كان الأطفال يراقبون الأمّ عندما تكون في كرم الحمّص، وهي تتمتم بكلمات.. هل كانت أدعية أَو حديثًا بين صديقتين، إحداهما تتكلّم والأخرى تنصت مواسية؟ عندما كان الجفاف يمتصّ نسغ الحياة من كلّ ما حولها من كروم، كانت تربة كرم الحمّص لا تتخلّى عن أمّ نايف، وتبحث في أعماق الأرض عن قطرات ماء تروي بها النباتات العطشى.. يُقال إنّه في إحدى السنوات كان الجفاف شديدًا، ولم ينج حقل من الجفاف، إلاّ الأرض التي زرعتها أمّ نايف بالحمّص.. كان ركّاب الباصات القادمة من دمشق يفاجَؤون بحقل الحمّص الأخضر، ويصيحون: حمّص.. حمّص.. وكثيرًا ما كان يتوقّف الباص، لينزل الركّاب، ويأخذوا بعضًا من عروق الحمّص.. وأصبح اسمه منذ ذلك الوقت كرم الحمّص.. كانت تشرف على حقل الحمّص أشجار باسقة نضرة، فكلّما أنجبت أمّ نايف ولدًا، كانت تزرع له شجرة، وكأنّ تلك الشجرة هي امتداد لذلك الوليد، ترعاها بحبّ وحنان ، كما ترعى أطفالها..

* * *

كيف تبيعه؟ هل يبيع الإنسان أمًّا وأبًا وصديقًا وابنًا متجسّدين معًا في قطعة أرض؟ هل تبيع ذكرياتها وذكريات أطفالها.. حتّى أبناؤها الذين استشهدوا، كانت تشعر بأنّ شيئًا من آثار أقدامهم لا يزال عالقًا في تلك الأرض..

ولكن..

أبو نايف رهن كرمه في ضهر الجبل، وقد ينتهي البيت كما انتهى الكرم.. شيخ تجاوز الثمانين.. كان كريم اليد، كريم العواطف، كريم الأخلاق.. لم تتركه كرهًا به، ولكنّها ما كان بقدرتها أن تترك أطفالها في لبنان وحدهم، وهم الذين اعتادوا أن يلجؤوا كلّ يوم إلى حضنها الدافئ، مثل عصافير صغيرة.. هو قال لها إنّها إذا تركته وأقامت في لبنان مع أطفالها، فسيكون مضطرًا لأن يتزوّج من جديد.. واختارت أن تكون مع أطفالها.. أبو نايف يستطيع أن يجد زوجة أخرى، فهل يجد الأطفال في بلد غريب أمًّا أخرى؟.

* * *

دائمًا تجد نفسها أمام خيارات صعبة.. بين المرّ والأمرّ..

لم يغمض جفن للجدّة تلك الليلة.. وفي الصباح بحثوا عنها فلم يجدوها.. سألوا عنها في بيوت الأقارب والأصدقاء والجيران.. لم يشاهدها أحد.. لا أحد يعرف عنها شيئًا.

عند الظهر عادت أمّ نايف.. شيء في داخلها كان قد انكسر.. عانت الكثير في الماضي، ولكنّها كانت شابّة وقادرة على الاحتمال، أمّا الآن فخسارة الأرض هي خسارة لذكريات جميلة.. ولأحلام أكثر جمالًا..

تتخيّل الأرض في المستقبل وقد بنيت فوقها بيوت صغيرة جميلة لذرّيّتها.. بيوت تؤنس الأرض ولا تخنقها.. بيوت محاطة بأشجار وورود وأطفال يلعبون ويسمعون من جدّتهم حكاية الأرض..

كانت عيناها محمرّتين من البكاء.. وكانت تجرّ بصعوبة قدمين ما عادتا قادرتين على حمل سنواتها التي تجاوزت السبعين، ومرض السكّريّ الذي أنهكها.. والجوع الذي هاجمها بضراوة، فهي لم تتناول لقمة واحدة منذ صباح اليوم السابق.. وبينما صاحت الوالدة: "وين كنتي يا خالتي شغلتِ بالنا؟" نظر الوالد إلى الحذاء الذي لم يكن يغطّيه غبار الشوارع القذر.. لم يكن حطام تراب أذلّته أقدام العابرين.. كان حذاؤها مغطّىً بتربة نضرة بلون الكبرياء.. بلون القلب.. بلون الحلم.. وفَهم..

ربّما ذهبت تشتكي لأرض كرم الحمّص همّ الزمن..

تضع رأسها على التربة فتهدهدها مثل أمّ..

ربّما ذهبت تستشيرها..

تعتذر منها..

تودّع أبناءها. الأشجار التي ربّتها مثل أولادها..

بصعوبة نطقت بكلمات مختنقة: قولوا لأبو نايف يكرم رح بيع الكرم..

* * *

تمرّ الأيّام سنة بعد أخرى، وبعد أربعين عامًا تذهب حفيدتها مع صاحب مكتب عقاريّ، باحثة عن قطعة أرض تشتريها.. تشاهد صفًّا من الأشجار النضرة، يخيّل لها أنّها تلوّح لها مرحّبة.. تربتها بلون الكبرياء التي لم تسحقها الأقدام.. تشعر بقلبها يخفق دون سبب.. تسأل الرجل: "هل هذه الأرض للبيع؟" ويردّ على الفور: "صاحبها يقول إنّه لا يبيعها بمال قارون.. بل إنّه يبيع أولاده قبل أن يبيعها!".

يفكّر الرجل قليلًا ثم يقول: "هذه جزء من أرض واسعة.. كان اسمها كرم الحمّص!".

ويضيف: "يُقال إنّها كانت لسيّدة من آل عبيد اسمها.... الستّ أم نايف..".

الرحلة إلى الحمّة..

كانت تتململ على المقعد الخشبيّ، وتتساءل: هل من العدل يا ربّي أن يكونوا هم في طريقهم إلى رحلة تخييم في "الحمّة "، وأنا مصلوبة على المقعد المدرسيّ، والمعلّمة تمارس علينا تعذيباً صوتيّاً مملًّا! فجأة!

سمعت أهازيجهم.. صخبهم.. وصوت الدربكّة الذي نجح في إقناعها بالمغامرة..

همست لابنة الجيران أن تأخذ حقيبتها معها إلى البيت، وتخبر والدتها أنّها ذاهبة إلى الحمّة.. وبسرعة الصاروخ فتحت باب الصفّ، وانطلقت تجري باتّجاه الباص..

كانت عجلات الباص قد بدأت بالتحرّك، والطفلة تنادي وتلوّح بيديها.. شاهدها مساعد المدير فأوقف الباص.. وقبل أن يتمكّن من توجيه أيّ سؤال، كانت قد أصبحت داخل الباص!.

بهدوء ولطف سألها عمّا تفعله في باص منطلق في رحلة تخييم، لم تجد بدًّا من الكذب:

- بابا قال لي روح معكن..

سألها:

- وين أغراضك؟

وبثقة شديدة أجابت:

- بشنطة بابا..

نظر الأساتذة بعضهم إلى بعض، وإلى الطفلة التي جلست على أحد المقاعد، مصرّة على أن تقاتل عند (حقّها) في الذهاب إلى الحمّة حتّى الموت: لا نامت أعين الجبناء! وبعد مشاورات ومداولات نطق الأستاذ سلمان بالحكم لصالحها.. هل صدّق كذبتها؟ أم أشفق على عيونها المتضرّعة؟ أم أنّ الله هو الذي أشفق على الطفلة، وأوحى له بالموافقة، كما أوحى لسائق الباص أن يتوقّف قرب مدرستها تحديدًا، وليس في أيّ مكان آخر ؟!

وتحرّك الباص ومعه الطفلة، بمريولها المدرسيّ الأسود!

كادت تطير من الفرح، وهي تتابع نكاتهم ومزاحهم وأغانيهم المرحة، والدربكّة التي تنطلق لتعيد إليهم الحماسة كلّما تعبوا.

وصل الباص إلى دمشق، وصعد الأستاذ إلى الباص، ليجد ابنته جالسة في المقعد الأوّل، تصفّق وتغنّي مع الطلاب!

فوجئ بوجودها، لكنّه بحسّ الشاعر لم يهن عليه إفساد فرحتها الطفوليّة..

* * *

قبل أسبوعين سمعت والدها، وقد كان مديرًا لثانويّة البنين، يخبر أمّها:

- رايحين رحلة تخييم على الحمّة..

وسمعت الصغيرة الخبر فصاحت:

- بدّي روح معكن.

- الشباب رايحين معسكر إنتي شو بدّو (يتعتعك) معهن!

كان جواب الأمّ الحاسم والفوريّ..

بدأت التحضيرات.. الأستاذ كان عضوًا في الكشّافة في لبنان، ولديه خبرة كبيرة برحلات التخييم. وبدأ الطلاّب يتقاطرون إلى البيت بعد الدوام للتحضير للرحلة.. بدأ التدرّب على الألعاب والأهازيج والمسابقات، فالرحلة كانت حدثًا مهمًّا، ويجب أن يتوفّر لها كلّ عناصر النجاح..

وكلّما أبصرت الطفلة تحضيرات الرحلة، ازداد استبسالها لإقناع والديها بالسماح لها بمرافقتها.. ولكن دون نجاح!

برغم كلّ شيء بقي عندها أمل.. كان حدسها يطمئنها بأنّها ذاهبة!

كان الأستاذ قد سافر إلى دمشق قبل موعد الرحلة بيوم، لإنجاز بعض المعاملات، وشراء معدّات التخييم، وقد عمل حسابًا لكلّ شيء، إلاّ أن يجد طفلة بمريول أسود، تجلس على المقعد الأماميّ في الباص!..

رحمه الله كم كان حليمًا وحكيمًا وصبورًا..! فقد وجد أمامه أمرًا واقعًا، ولا مجال لإعادة الطفلة إلى السويداء، إذن فلتستمتع الصغيرة بهذه الرحلة..

وصل الباص إلى الحمّة، فانطلق الشباب في نصب الخيم استعدادًا للمبيت.. وأمام الخيم كانت سهرة لا تُنسى! دربكّة وأغان مرحة، وانطلق أحد الطلاّب يغنّي:

- وقعت الإبرة بالبير

فيردّ الجميع معًا:

- الأعمى شافلا خرم كبير
- الأطرش سمع رنّتها
- المكرسح نزل تا يلمّا..

وكانوا وهم يغنّون يقومون بحركات مرحة مضحكة..

وجاء دور أغنية الجزرة، فوقف أحدهم ليقول:

- زرعنا جزرة جزرة..

فيردّون عليه:

- في وسط البستان.. بستان
- كبرت الجزرة
- سقاها عدنان عدنان
- جاء أبي يقلعها شدَّ شدّ لم يقلعها
- جاءت أمّي تقلعها.. أمّي أمسكت أبي.. أبي أمسك الجزرة.. شدّو شدّو.. لم يقلعوها..

وبدؤوا يمثّلون الحركات.. عندما يأتي الأب.. ثم الأمّ.. والإخوة! كانت الصغيرة تتابع باستمتاع، وكم كانت فرحتها عارمة، عندما كلّفوها بأن تقوم هي أيضًا بالمساعدة في قلع الجزرة، ويجبرون بخاطر الطفلة عندما يصيحون جميعًا: شدّو شدّو.... فقلعوها!.

وجاء دور الدخول إلى حمّامات المياه الساخنة، والصغيرة جاءت بمريول المدرسة، وليس معها أيّ استعدادات للسباحة. ولكنّها غمست رجليها في المياه الساخنة.. كانت درجات الحرارة تتفاوت بين مسبح وآخر، فالبلسم هو أقلّها حرارة.. والمقلى هو اسم على مسمّى..

تجوّلوا ساعات في تلك المناطق الرائعة الجمال، وكانت الصغيرة تتقافز مثل جدي صغير، دون أن تشعر بالتعب..

في أثناء عودتهم شاهدوا مجموعة من الأطفال الصغار يحملون باقات صغيرة من الزهور البرّيّة، ويلوّحون بها للباص. طلب الأستاذ من السائق التوقّف مشجّعًا ركّاب الباص على شراء باقات الزهور البرّيّة بما تبقّى من فرنكاتهم القليلة.. واشترى من طفل صغير باقة ذابلة، وناوله ليرة تركها له بكاملها، وصاحت الصغيرة محتجّة:

- بابا الباقة بنصّ فرنك.. وأنت أعطيته ليرة، وأخذت أبشع باقة..

لم يُجب الأب، ولكنّه وجّه لها نظرة عاتبة، لمحت دمعة مكابرة في عينين تنظران باتّجاه خيام بائسة للّاجئين، ربّما أعادت إليه ذكرى طفولة قضاها مع المجاهدين في صحراء النبك السعوديّة.. كانت عيناه أبلغ من أيّ كلام..

كان عليها أن تفهم أنّ الليرة - ولعلّها كانت الوحيدة في جيبه - قد قدّمها للطفل ثمن خبز لعائلته، وليس ثمن زهور ذابلة..

وصلوا إلى البيت.. كانت ممسكة بيد والدها في محاولة للشعور بالأمان.. فالأمّ في انتظارها! فتحت أمّها الباب فوجدت الصغيرة مختبئة خلف والدها..

وانطلق صوت الأستاذ عاليًا: سلمى كثير انبسطت بالرحلة!

ثمّ همس للأمّ بكلمات التقطتها أذنا الطفلة: خلّيها مبسوطة!

كان ذلك بمثابة "صدور عفو!" التزمت به الوالدة!

* * *

الطفلة التي جاءت من قرية عين عنوب الجميلة في لبنان، ولم تجد في صخور السويداء القاسية القاتمة العبوس سوى شياطين متحجّرة، مستعدّة في أيّ لحظة لأن تُبعث من جديد. أصبحت الآن وبعد أن تعرّفت إلى أبناء تلك الأرض عن قرب، تدرك أنّ تحت تلك الصخور هناك تربة صالحة، تنتظر عرقًا أخضر و قطرة ماء..

أصبحت الطفلة الآن، تشعر أنّ جذورها تنتمي إلى تلك التربة، وتبقى عين عنوب، قرية والدتها، مكانًا جميلًا للزيارة.. ثمّ العودة إلى الوطن..

الصيفيّة في عين عنوب

كنّا ما إن ينتهي العام الدراسيّ، حتّى يأخذنا العمّ أبو نبيل ابن الخالة أمّ ملحم في سيّارته المريحة، لقضاء العطلة في عين عنوب.. وأجمل ما في الرحلة كان التوقّف في شتورة، ليشتري لنا العمّ أبو نبيل سندويتشات كبيرة، عامرة بالأطايب، كنّا نبذل محاولات مستميتة في إكمالها، وشعارنا "ننهيها أو تنهينا"!.. نصل إلى عين عنوب ونشعر أنّ القرية تتغيّر سنة بعد أخرى.. البيت القديم الذي كنّا نستشعر فيه روح الأجداد، وعبق الماضي، تحوّل إلى بيت من إسمنت.. السقف الذي كانت تسامرني أخشابه عندما يعزّ عليّ النوم، أصبح إسمنتًا لا يتقن الكلام.. افتقدتُ جذوع الأشجار، وهي تحدثّني عن حياتها، مذ كانت بذرة مدفونة في عمق الأرض. تصف لي ألوان العصافير التي كانت تزورها.. وصوت خرير الماء في الساقية المجاورة.. ويتدخّل القصب ليقول لي إنّ حظّه التعِس جاء به إلى هذا المكان، دون أن تُتاح له الفرصة، ليبرز مواهبه، ويصبح منجيرة تعزف أجمل النغمات.. قنديل الكاز الذي كان ضوءه يرسم أشكالًا مثل خيالات الظلّ، نتابعها بانبهار وهي تتغيّر في كلّ لحظة، أصبح ضوءًا كهربائيًّا رتيبًا، ليس فيه ما يستثير الخيال.

كان أكثر ما أفتقده وجود جدّي نعيم الذي رحل، وجنينة عين الطاحون التي لم تُطِق رحيل الحبيب، فذوت أغصانها وتشلّقت حيطانها، وأصبحت الطريق إليها مقفلة بالعلّيق البرّيّ..

مشاوير العين انتهت أيّامها مع وصول قساطل الماء إلى البيت.. لم تعد الخالات يحملن جرار الفخّار ذاهبات إلى العين عند المساء، فيلتقين

بقربباتهنّ يتسامرن حينًا، ويعُدن بسرعة في أحيان أخرى، إذا لمحن أشباحًا لمعجبين يتلصّصون على الصبايا الجميلات من بين الأشجار، وخصوصًا شبح شابّ وسيم كان أكثرهم جرأة، كانوا يسمونه: "الأزعر"!.

* * *

كنت أنتظر بلهفة بناء العرزال على السطح، فأهرب من البناء الإسمنتيّ إلى كوخ مبنيّ من أغصان أشجار وأوراقها.. أجلس فيه ساعات طويلة، أتأمّل منظر البحر الممتدّ أمامي بكلّ وقار وجلال.. ومطار بيروت حيث الطائرات تبعد أحبابًا حينًا، وتقرّبهم حينًا آخر.. كنت أتأمّل الطائرات محاولة أن أتخيّل ركّابها بمشاعرهم، وأحاديثهم، وما كانوا يحملونه في حقائبهم من الغرائب، كان شبّان عين عنوب يرتحلون إلى بلاد الاغتراب، وخاصّة إلى إفريقيا، وكنّا نسمع على ألسنتهم قصصًا غريبة عجيبة، عمّا كانوا يصادفونه في تلك البلاد.. ومن بين الذين جذبتهم القارّة السمراء خالي نايف، فقد سافر تاركًا في قلب والدته وأسرته جرحًا نازفًا..

كانوا يعبّرون عن اشتياقهم برسائل يحتفظ بها الأهل سنة بعد أخرى، ويعودون لقراءتها مرّات ومرّات.. وكانوا كلّما سمعوا عن قريب مسافر إلى إفريقيا، أتوا بالبقلاوة الموضوعة في علب من الخشب الخفيف الرقيق والمتين، ليرسلوها إلى حبيبهم المغترب.. وفي مرّة جاؤوا بعلبتي بقلاوة، بجلالهما وغموضهما الساحر، وكانتا مختومتين (أو هكذا قيل لنا!) لإرسالهما إلى إفريقيا مع أحد المسافرين، كانت عيوننا تراقبهما آملة أن يحدث ما يعرقل سفرهما..

ذهبنا جميعًا لتوديع المسافر، ولمرافقة صاحبتي الجلالة علبتي البقلاوة..! وصلنا فوجدنا كمّيّة من العلب المتشابهة، تصل من الأرض إلى السقف، وأكياسًا وصناديق من كلّ الأشكال والأحجام.. كانت كلّ أسرة تأتي، ومعها أربعة أو خمسة كيلوغرامات على الأقلّ، مفترضة أنّها الوحيدة، ومع كثرة المغتربين أصبحت الهدايا تحتاج إلى طائرة شحن! عندما شاهدت جدّتي المنظر قالت: "كنا جايبين علبتين.. منرجّع علبة ومنخلّي علبة".. وفّرت جدّتي على نفسها الإحراج.. وجلس الأطفال يحلمون بالعودة إلى البيت سريعًا، لاكتشاف ما في داخل العلبة الغامضة من كنوز.. ولم تخيّب العلبة أملنا!.

من أجمل الذكريات ذهابنا إلى المطار، وقيام أحد معارف العائلة من كبار الموظّفين هناك بمرافقتنا في جولة في المطار والطائرة.. وكانت أوّل مرّة نرى فيها طائرة من الداخل، وأصبح لدينا مغامرة نُباهي بها، وكم نِمتُ وأحلام ركوب الطائرة، والارتفاع بها في الجوّ مثل بساط الريح، تُدغدغ مشاعري الطفوليّة!.

كان المغتربون يعودون حاملين معهم الكثير من الأشياء الغريبة والجميلة، فالخال أبو نديم أحضر معه كاميرا سينمائيّة، كان يصوّرنا بها ونحن نلعب، ثمّ نذهب لمشاهدة الفيلم على شرشف أبيض كبير، يتحول إلى الشاشة الفضّيّة.. ونتحوّل نحن إلى نجوم سينما، نتحرّك على الشاشة أمام عيون المتفرّجين المنبهرين.. خاصّة أنّه في ذلك الوقت لم يكن التلفزيون قد عُرف بعد!.

المعروفيّة..

احتدم الجدال في عين عنوب، عندما قرّر شيخ العقل محمد أبو شقرا تقديم مساحة من الأرض، بين عين عنوب والشويفات (للحوارنة!) ليسكنوا فيها، ويبتعدوا عن حزام الفقر المرعب الذي كان يحيط ببيروت.. فالأوقاف الدرزيّة غنيّة، ومعظم هؤلاء الحوارنة هم من جذور لبنانيّة، فكيف يتركونهم في ذلك الفقر المدقع، بينما الأوقاف تمتلك ثروة طائلة، المفروض أنّها لمساعدة فقراء الدروز؟ كان الشيخ محمد إضافة إلى حسّه الإنسانيّ، وبُعد نظره يعلم تمامًا أنّ هؤلاء الحوارنة الذين يعيشون في هذا الشقاء، هم أبناء محافظة كان قمحها يطعم روما، وما كانوا قد وصلوا إلى هذا الفقر، لو لم يتجنّدوا لتحرير بلدهم من الاستعمار الفرنسيّ، وتحرير العالم من هيمنة الحثالة التي تسعى للسيطرة عليه، ببطشها، وإرهابها، وخنق كلّ محاولة لتحقيق الحرّيّة والعدالة.. بعض أهل عين عنوب كانوا مقتنعين بالفكرة، وبعضهم الآخر قاوم بضراوة إيواء (الحوارنة الشراشيح!) قرب بلدتهم.. تمّ تقديم الأرض للحوارنة، فجاؤوا بفقرهم، وخيمهم، وأكواخ الصفيح التي تُظلّهم، ليسكنوا بين القريتين الأنيقتين، عين عنوب والشويفات.. وكنت إذا ذهبنا إلى بيروت بالسيّارات العاملة على الخطّ من بشامون، إلى عين عنوب، الشويفات، ثمّ بيروت، ومررنا من هناك، كثيرًا ما أسمع في السيّارة كلامًا عنصريًّا بغيضًا، يزيد من إحساسي بالغربة.. خاصّة عندما يكون أبو توفيق في السيّارة، ويصيح وهو يحدّق إليّ بلؤم:

"الحوارنة شـراشـيح.. لو كانوا يهود أهلا وسـهلا فيهن.. مرتّبين ودفّيعة.. يا ريت يجو على لبنان بيصـير متر الأرض بهالقد وهالقد!" لم يكن أحد يردّ عليه أو يهتمّ لكلامه، ولكنّ هذا لم يمنعه من التنقّل بين السيّارات الذاهبة إلى بيروت، والجلوس على العين، والترويج لفكرة اسـتقبال اليهود بالترحاب، وطرد الحوارنة الشراشيح!.

أبو توفيق لم يكن من الضـيعة، بل نبت فيها فطرًا سـامًّا، محاولًا استقطاب من هم على شاكلته، في محاولة لتخريب سلام ضيعة الحبّ وأمانها.. وجاء يوم أصبح فيه أبو توفيق سياسيًّا يُلقي الخطب الوطنيّة الحماسيّة، شاتمًا لاعنًا كلّ خائن عنصريّ عميل! وفي الحرب اللبنانيّة، كان أبو توفيق يقوم بدور كبير في تأجيج الطائفيّة، في بلدة طالما فخر أهلها بأنّهم أسـرة واحدة، مسـيحيّين ودروزًا، وفي ذلك يقول طليع حمدان:

أمّي وأمّ إلـياس بـالـحـارة يا ما سـويّة تَشـرنـو الخَاروف
وبـفـرد خـيـط وفـرد سـنّـارة غزلولنا بكانون كـنزة صـوف
ومن كـفـوف الأمّ والجـارة يا ما أكل هاك الرغيف كفوف
وتكتـب حروف العزّ عـالكـارة مش طيّبة اللقمة بدون ضيوف
ومن بعضهن كانو بدون جميل يسـتقرضـو (منديلنا) المعروف
وكنّـا بيوم الـدفن والإكليـل ع كتافن المنديل ذاتو تشـوف
وكلما شـفت منديل عم بيميل بركض بلمّو من قلـب ملهوف
وبقشـع على الميلين بالمنديل من ميـل ريحـة خـدّ أم جرجي
ومن ميل ريحة خدّ أم معروف

كنّا ننتظر مناسبات الأعراس بفارغ الصبر، وقبل كلّ عرس كانت خالتاي بهيّة وجميلة، تقومان بخياطة فساتين أنيقة للمناسبة، وتطرّزان عليها زهورًا غاية في الذوق والجمال.. وكنّا أيضًا نترقّب زيارة (الخطّاب) للخالتين الجميلتين، وهم يأتون وفودًا بكامل الأبّهة والأناقة مع الهدايا الكثيرة، وكانوا يتلطّفون مع الأطفال ليكسبوا ولاءهم، ويتجنّبوا مقالبهم! ومن الطريف أنّ مناسبات الأتراح، كان لها حصّتها من الاهتمام أيضًا، حيث كان طليع حمدان يقول رثاءً جميلًا، يعدّد فيه مناقب الفقيد.. وطليع حمدان كان في ذلك الوقت شابًّا صغير السن، عظيم الموهبة، وكثيرًا ما كانوا يقيمون حفلات زجل في القهوة قرب العين، ونحن نجلس منصتين إلى الصوت القادم من بعيد يزيده الليل غموضًا وسحرًا..

تنتهي الإجازة، ونعود إلى السويداء بفساتين جميلة، وحكايات أجمل.. ولكن ليس هناك ما هو أجمل من الوطن.

الجدّة.. ترحل.. وتعود..

كانت الجدّة مريضـــة، وجاءت إحدى صـــديقاتها لزيارتها، ومعها كنّتها الحامل.. نظرت الجدّة إلى المرأة الحامل وقالت:

- إن شاء الله إذا متّ إخلق عندكن..

دعوا لها بطول العمر.. ولكنّ دعاءهم بطول العمر لم يكن مســتجابًا.. فقد توفّيت بعد تلك الزيارة بأشهر..

تمرّ الســنوات.. طفلة صـغيرة تمسـك بيد والدها في السـوق.. تترك يد والدها وتركض باتجاه الأسـتاذ، لتسـلّم عليه بلهفة شـديدة.. يسـتغرب الأب ويسأل ويأتي الجواب مفاجئًا:

- هذا ابني سلامي..
- بس إنتي زغيري ما عندك ولاد..
- أنا كنت كبيري وكان سلامي ابني..

يصـــل الخبر للوالدة أنّ الجدّة أمّ نايف (ناطقة)، تُخبر عمّتيّ ويذهبن ثلاثتهنّ للتعرّف إلى الطفلة..

يسلّمن عليها وتبدأ الوالدة بأسئلتها:

- عرفتيني.
- أي إنتي مرتو لإبني سلامي.
- مين هذول عرفتيهن؟
- أي بناتي رحمة وبتلة..
- نحنا وين ساكنين؟
- قريب من (الهيش) وفي حدّ البيت جرس كبير.
- جرس مدرسة؟

- لا جرس كبير وصوتو عالي.

(كان حرش طريق قنوات بالفعل يصل إلى قرب بيتنا، المقابل للكنيسة).

وتنهال الأسئلة على الطفلة، وهي تجيب عليها، وتصبح الزيارة حديثًا لا تملّ الوالدة من تكراره..

تمرّ السنوات، وتكبر الطفلة، وبعد أن يتخرّج أبناؤها في الجامعة بتفوّق، تعقّب قائلة:

- أنا ربّيت أولاد ناجحين في جيلي الماضي، وفي جيلي الحاضر..

تقول الأديبة غادة السمّان في كتابها "السباحة في بحيرة الشيطان" وفي فصل عن التقمّص:

"تقمّص أو لا تقمّص.. لا أدري.. كلّ ما أدريه هو أنّ لدى الدروز كنزًا إنسانيًّا من المعرفة تجب دراسته بجدّيّة، ونفض الغبار عنه، فقد يكون فيه الدرب إلى اكتشافات إنسانيّة جديدة حول سراديب النفس الغامضة.. فالإنسان الذي صار يعرف القمر جيّدًا ما يزال يجهل صحارى نفسه".

صخرة سيزيف

مضى على زواج الوالدين أكثر من عشر سنوات.. لم تتخلّ فيها الوالدة عن حلمها لحظة واحدة.. وبقيت مصـرّة على شـراء أرض، وبناء بيت لأولادها..

أصبحت أسعار الأراضي ترتفع بشكل جنونيّ.. عندما عادوا من لبنان، كان مرتّب شـهر واحد يكفي لشـراء أرض للبناء ويزيد، وبعد سـنوات قليلة طار سعر الأراضي وحلّق، والراتب بقي يراوح مكانه..

في إحدى الليالي، انتظر الأبوان إلى أن نام الأطفال، ولكنّ طفلة كانت تتظاهر بالنوم، وتصـغي إلى كلّ ما يقال.. بدأ نقاش ارتفعت حدّته على غير ما اعتدنا عليه.. كان الوالد مصـرًّا على أنّ الراتب لا يحتمل شـراء أرض ببضـعة آلاف، وما نفع الأرض إذا لم يكن هناك إمكانيّة للبناء.. والوالدة كانت تدافع باسـتماتة عن حقّ أولادها في بيت يكون لهم.. اسـتمرّ النقاش هادئًا حينًا، متشـنّجًا حينًا آخر.. ولولا الحبّ الكبير، والتفاهم الذي كان يجمعهما.. ولولا الأطفال الثلاثة، لنفّذت الوالدة ما هدّدت به أوّل مرّة في حياتها، أن تذهب إلى بيت أهلها إذا كانت سـتعيش وليس لرأيها، أو مشـاعرها، أو مسـتقبل الأولاد، وحقّهم في امتلاك أرض تخصّهم أيّ قيمة.. بعد ساعات من الجدال وصلا إلى حلّ وسط.. شراء الأرض مقابل ألاّ تطالب الوالدة بالبناء عليها.. وأن تتكفّل الوالدة بالعمل على تأمين ثمن الأرض.. كانت الوالدة تعلم جيّدًا أنّ كلّ يوم يذهب يقلّل من فرصـتها في تحقيق حلمها، فقامت على الفور ببيع ما بقي عندها من مصـوغات ذهبيّة، واسـتدانت مبلغًا من بعض

أقاربها، وقاما بإلغاء تأمين على الحياة، كانا قد اشتركا به في لبنان، واستعادا مدخّرات التأمين..

وتمّ شراء الأرض.. ولكن كان على الأسرة أن تتعاون على الاقتصاد بالمصروف، لتسديد الديون..

كنّا نتصيّد لحظات بحبوحة، بأفكار نخترعها أحيانًا، ونتشارك أفكارها مع الآخرين أحيانا أخرى!

كناّ نطلق مسمّيات عجيبة على الأطعمة العاديّة، لنعطيها إيحاءات شهيّة.. أعناق الباذنجان كانت تُسمّى "عصافير"، وقلوب الباذنجان التي تُستخرج عند حفره كان اسمها يختصر إلى "قلوب"..

كنّا نترك قطعة إدام لذيذة نأكلها في آخر الوجبة، فننسى طعم الخبز، وقلّة الإدام، ولا يبقى في ذاكرة حليماتنا الذوقيّة إلا فرح التلذّذ باللّقمة الأخيرة!.

أمّا الحلوى فقد تعلّمنا الاستمتاع بها على طريقة "الشرب ورا البلّوطة.. بيسوى جاجة ممعوطة!". فقد كنّا نأتي بثمرة بلّوط مرّة الطعم، فنأكل منها قدر ما نتحمّل.. وعندما نشرب الماء بعدها نشعر أنّه بطعم العسل!.

برغم ما عانينا من تقشّف لتسديد الديون، بقيت الوالدة تتحيّن الفرصة لبناء بيت دون أن تخلف بوعدها الذي قطعته للوالد، وساعدتها الظروف عندما جاء شابّان يطلبان عملًا، وشرحا للوالد ظروفهما المادّيّة البالغة الصعوبة، وعندما عرض عليهما الوالد مبلغًا لمساعدتهما، رفضا أن يقبلاه دون أن يقوما بعمل.. وخطوة قادت إلى أخرى.. وبعد ملحمة نضال خاضتها الوالدة، وخضناها معها لبناء البيت.. تحقّق الحلم!.

دخلت الوالدة إلى البيت الذي كنّا نستأجره، وفي يدها مفاتيح. أغلقت الباب، وبدأت ترقص بفرح.. من عادة الوالدة التصرّف بهدوء ورزانة، وقلّما عبرت عن عواطفها باندفاع، ولكنّها ما كانت قادرة على أن تسيطر على موجة الفرح الغامرة، بعد أن حقّقت حلمًا سعت إليه، وتعبت من أجله أكثر من عشر سنوات.. كانت تصرخ بحماسة طفلة صغيرة، وهي تلوّح بالمفاتيح:

- صار عنّا بيت.. صار عنّا مفاتيح..

كان البناء صخرة سيزيف أخرى.. وشارك الجميع في دفعها إلى القمّة.. حتّى الأطفال اقتنعوا أنّ تعبًا مؤقّتًا سيزول، ويبقى لهم سقف يخصّهم، دون أن يكونوا تحت رحمة أحد..

زرعت الوالدة شجرة زيتون للبركة.. شجرة ليمون.. وعريشة عنب وياسمين.. والكثير الكثير من الورود.. ونثرت حُبّها وحنانها أينما مرّت..

السويداء عنقاء تنهض من الرماد

من أجمل المشـــاوير مع الوالد كانت بروفات المســـرحيّات، خاصّـــة مســـرحيّة اليرموك التي مثّلت أوّل مرّة عام 1943، ثمّ كان تمثيلها يُعاد ســـنة بعد أخرى، في بلدات وقرى الجبل، على مســـارح بعضـــها تاريخيّ، وبعضـــها ارتجاليّ.. كان يقوم بالأدوار النســـائيّة شـــبّان يرتدون الملابس النســـائيّة، ويقلّدون أصـــوات النســـاء، عندما لا يجدون من يقبلن الظهور على المسارح..

أجملها كانت بروفا في شـــهبا، مدينة الإمبراطور فيليب العربيّ.. في ذلك الصـــباح المشـــمس الجميل كان عنفوان البازلت، وأصـــداء التاريخ، وحماسـة الشـباب تحفر الأبيات في تلافيف الذاكرة، لتبقى حاضـرة في كل حين، قادرة على شحننا بالحماسة، والتفاؤل، كلّما شعرنا باليأس: ذكرينا..

ذكّرينا، فقد أَلِفْنا التصـابي ورخيصَ الهوى ورجعَ الربـاب
ونســـيـنـا أيّـام كـنّـا أبـاةً نملأ الكون بالندى والشـــباب

يا ضـفـاف اليرموك مالك أقفرت من الشـمّ والأسـود الغضـاب؟
يا ضـــفـاف اليرموك مالك أغضـــيت على غمرة الزمان المحابي
يـا ضـــفـاف اليرموك آن لـك البعـث فميـدي وهلّلي يـا روابي

ومرّت الأيام..

برز من بين الطلّاب مجموعة رائعة من المتحمّسين للمسرح، وكانت نهضة مسرحيّة لافتة، واكبتها أنشطة فنّيّة متميّزة، من عزف، وغناء، وإحياء للتراث الشعبيّ..

الرياضة أيضًا وجدت أندية ترعاها.. وأصبح فريق كرة القدم من أفضل الفرق الرياضيّة في القطر..

المرأة دخلت مجال التعلّم والعمل، وأثبتت جدارة ونجاحًا وقوّة شكيمة.. فالمرأة كانت معتادة أن تنهض قبل الفجر، لتعدّ الخبز والطعام.. لتهتمّ بدزّينة من الأطفال.. لتُطعم المواشي والدجاج.. لتغسل وتنظّف وتعدّ المونة.. لتساعد زوجها في الحقل.. ولِتجد بعد كلّ ذلك وقتًا للاهتمام بأسرتها.. لا تنام إلاّ بعد أن ينام الجميع.. وتُبقي عينًا مُغمضة وعينًا ساهرة على من حولها.. وأصبحت موظّفة تقوم بواجبات وظيفتها وبيتها وأمومتها، دون تقصير في أيّ منها..

لم نكن نجد الكثير من الطعام الشهيّ لنستمتع به، ولكن كان للحماسة والأمل وحسّ الانتماء طعم أطيب وألذّ! كنّا نتابع أحداث بور سعيد، وكأنّنا نعيش بينهم، ونغنّي مع فايدة كامل:

دع سمائي فسمائي محرقة.. دع قنالي فمياهي مغرقة

واحذر الأرض فأرضي صاعقة

دع سمائي.. دع سمائي

البلدان العربيّة كانت تتحرّر من الاستعمار قطرًا بعد الآخر. وعندما غنّت وردة الجزائريّة: "قسمًا بالنازلات الماحقات"، كانت حناجرنا جميعا تردّد القسم..

وسمعناها تغنّي "ثلاثة أخوة من دير ياسين"، فبكيناهم بدموع صادقة..

وهتفنا مع يوسف الخطيب:
"فإذا أنت لم تثر.. فاندثر..
خذ بكفّيك خنجرًا.. وانتحر.."
أصبحت الطفلة تُدرك لماذا رفض حسين عبيد العودة إلى لبنان.. ولماذا فضّل علي عبيد الحياة في هذا الموطن القاسي، ولماذا لم تنجح كلّ الإغراءات في إقناع سلامة عبيد بالتدريس في الجامعة الأميركيّة، والبقاء في لبنان.
لهذه البلاد سحرها.. قدرتها العجيبة على أن تحترق في سبيل الحرّيّة والكرامة.. ثمّ تنهض من الرماد أكثر قوّة وصلابة..
وها نحن أصبح عندنا وطن وبيت.. الذهاب إلى لبنان لم يعد حدثًا ننتظره بترقّب.. السويداء كانت قلب الحدث.. كانت ثورة ثقافيّة علميّة زراعيّة عمرانيّة حدثت كالسحر خلال سنوات قليلة..
والآن وبعد ستّين عامًا، كبرت البذور التي زرعها أجدادنا وآباؤنا.. في عام 2008 أعلنت المحافظة قضاءها على الأمّيّة.
الأدباء والشعراء صاغوا كلمات تُلامس الوجدان، وتنشر عطر ياسمينها في العالم أجمع..
المثقّفون كتبوا في التاريخ والتراث والتراجم..
الرسّامون والنحّاتون انتشروا، ونشروا أعمالهم في كبريات الساحات، والمتاحف، في السويداء وفي كلّ العالم..
الرياضيّون من الشباب والشابّات ما زالوا يحتلّون مراكز متقدّمة.. حتّى في الشطرنج نجد أبطالًا وصلوا إلى أكثر من أولمبياد عالميّ..
خرّيجو الجامعة وخرّيجاتها من مختلف الاختصاصات، تفوّقوا، وغطّوا حاجة المحافظة، وانتشروا في بلدان الخليج والعالم..

الأطفال يقفون على المسارح، يقدّمون أرقى الفنون: غناء.. عزفًا.. باليه.. شعرًا..

يحـدّقون إلى البعيـد، وفي عيونهم تحـدّ وإصـــرار.. هم قـادرون على اســتخراج الحيـاة من رحم الموت.. أجـدادهم لم يخيّبوا أمل التـاريخ أبـدًا.. وهم يحملون نفس الجـذوة التي لن تنطفئ برغم قوّة الريـاح العاصفة..

أجلس أمام بيتنا وأتذكّر..

الأطفال الذين صُدمت بمنظرهم وهم يجمعون روث الحيوانات.. جمعوا روث الحيوانات لحماية الأشجار.. كان يجب أن أعرف أنّ القذارة هي في قطع الأشجار، وفي شرائها وحرقها، وليست في جمع الروث..

هؤلاء الأطفال كانوا يعودون إلى بيوتهم ليغتسلوا من الغبار والأوساخ، وليفتحوا كتبهم ويدرسوا.. وعندما لا يجدون كازًا لقنديلهم كانوا يجلسون في الشارع تحت أعمدة النور.. هم أحفاد حضارة قامت على السلام، والعمل، والعلم، فأضاءت بنور أبجديّتها جنبات الكون..

هؤلاء الأطفال لم يجلسوا ليندبوا حظّهم.. بل كانوا يبتدعون الفرح في أغانيهم، ودبكاتهم، وألعابهم.. وكانوا يعلمون أنّه لا مستقبل ليائس، أو قانط، أومحبط.. ويجيء الدارسون من أنحاء العالم، ليوثّقوا تلك الموسيقا المبدعة، والأغاني المترعة بالفرح..

هؤلاء الأطفال الذين كانوا يعيشون في أُسَر لا يقلّ عدد أولادها عن عشرة، أصبحوا مقتنعين بفكرة تحديد النسل، وتوفير كلّ الظروف لولدين أو ثلاثة، ليتعلّموا ويبدعوا.. تراثهم يقوم على العقل وليس على النقل..

هؤلاء الأطفال كبروا، وتعاونوا، وأزاحوا قناع الصخر الأسود عن وجه التربة، فظهرت بكلّ بهائها الأخضر، وأصبحت الأشجار المثمرة تغطّي معظم مساحة المحافظة.. وصار تفّاح الجبل يُعدّ من أفضل أصناف التفاح في العالم إن لم يكن أفضلها جميعًا..

هؤلاء الناس الذين صُدمتُ بوجوههم البازلتيّة الصمّاء، وجدت خلف ذلك الوجه الصخريّ ينابيع خير وعطاء، وتربة خيّرة تعطي سنابل قمح، تطعم الضيف قبل أن تأكل.. وتختار لاستقباله أفضل غرف البيت، وتشتري قهوة الضيف قبل مؤونة الأسرة.. وقبل كلّ شيء هي تضع الحرّيّة، والكرامة والوطنيّة، في قائمة الأولويّات..

هذا الجبل قدّم للثورة على الفرنسيّين، أكثر من ألفي شهيد من خيرة أبنائه عندما كان عدد سكان المحافظة خمسين ألفًا، وضعفَي هذا العدد إذا احتسبنا من أصيبوا بجروح، وإعاقات دائمة، ومن ماتوا بالسمّ والتعذيب والتجويع..

الطفلة التي شتمتني عندما رأتني أوّل مرّة.. وجدتُ فيها قلبًا صادقًا محبًّا، وذكاء فطريًّا، وشهامة وشجاعة.. ووصل أولادها في المغترب إلى أعلى المراتب التعليميّة، والوظيفيّة..

البيوت التي كانت فقيرة مجدبة، لا لون لها، تحوّلت بجهود أبنائها إلى بيوت جميلة أنيقة، محاطة بكلّ أنواع الورود والأشجار..

* * *

هل تحقّق طموحنا وطموح من قبلنا؟

وهل سُمح لنا بأن نفعل؟

حقّقنا الكثير.. ولكنّنا لا نزال نعاني مشكلات، بعضها محليّ وأكثرها مستورد.. السويداء كما كلّ المنطقة، تمرّ من عنق زجاجة.. فهل نخرج منها سالمين، أو ينتهي أمرنا عبيدًا في أرضنا.. عبيدًا في دول اللجوء؟

الجيل الجديد الذي هاجر مختارًا، أو مضطرًّا، هل سيعود؟ هل سيذكر أنّ له بلدًا يحبّه ويحتاج إليه؟

هل نلومه؟ هل نملك أجوبة على تساؤلاته؟

وإذا سألَنا آباؤنا وأجدادنا عن أحوالنا ماذا سنقول؟
كثيرون من الذين حملوا رسالة أبو نايف، انتهوا تشريدًا وقتلًا وسجنًا ونفيًا، والذين خانوا وباعوا، وتجسسوا، اشتروا بمال الخيانة أقلامًا تزوّر التاريخ، وتجعل منهم أبطالًا وطنيّين..
بعض الذين كان يجب أن يحملوا رسالة "أبو نايف" أصبحوا "أبو فيّاض"! هل مسخهم الزمن؟ أم هم الذين مسخوه؟
المنطقة تُحرث لزراعة الألغام القادمة من الشرق والغرب، يريدون لحرّاس الأرض أن يرحلوا عن الأرض.. فهل يفعلون؟

هل أتخيّل؟

الدرب طويل يا أبتِ..
والليل سواد..
هل ألمح من قلب العتمة
أيديَ.. تشفي.. تبني.. تزرع.. ترسم.. تكبر.. تكثر؟
هل أسمع من عمق الصمت صوتًا طفلًا ينشد.. يهدر:
"اليوم نفتتح الطريق.. فلا هجوع ولا رجوع..
اليوم نفتتح الطريق.. اليوم نفتتح الطريق.."
أم أتخيّل؟
هل أتخيّل؟

الفهرس

إنكليزيّات شقراوات تتلمّسهنّ أيدٍ خشنة!..... 5

مدرسة الإنكليز..... 8

جدّتي أمّ نايف..... 11

أبو موسى..... 14

ابني حسّان..... 17

الحبيبة..... 19

حكايات المساء..... 24

الضيعة..... 26

المال قليل.. ومن الحبّ ما يكفي..... 30

شو بتحبّي تصيري بس تكبري؟..... 33

إلى ابنتي..... 35

صداقة لا تعترف بالحدود!..... 37

الراديو..... 40

طقم كنبايات.. ودمعة في زاوية العين..... 46

الضيف الصغير..... 50

ليلة الوداع..... 54

السويداء.. حجارة في حداد!..... 56

بيتنا في السويداء..... 59
ضيفة بشارب وطربوش..... 62
زيارة جدّي أبو نايف..... 66
الخالة أمّ ملحم..... 69
جدّي أبو نايف علي..... 72
يا قلب يلّي بشقا الدهر مهتم..... 74
وكانت الثورة..... 77
ريجيم !..... 79
حجز على بيت أبو نايف..... 83
مدرسة الزهراء..... 86
دبّ النافعة..... 89
خروف مختلف اللون!..... 91
طناجر إبليس!..... 93
تلفون من لبنان..... 96
حورانيّة في لبنان..... 99
العودة إلى مدرسة الإنكليز..... 101
الحكيم..... 104
مات جدّي نعيم..... 107
سهرات وقصائد..... 108

البالوص..... 111
أجلّك الله.. حُرمة!..... 113
إن كان صُبيّا يا نيّالي.. إن كنّو بنيّة راحت عليّا!..... 115
غريبة تبكي دما..... 117
لست أدري..... 119
هل تهدأ العاصفة؟..... 120
ناموا ولا تستيقظوا.. ما فاز إلا النوَّم..... 125
الناعورة..... 130
الليلة الشباب جايين يسهرو عنّا!..... 133
قلب وكمشة تراب..... 138
طفلتان ضائعتان في ظهر الجبل..... 141
الغنيمة!..... 153
حنين..... 157
زوّار الليل..... 159
لا، لن أكونْ..... 164
إبعاد إلى حمص..... 166
عاد الخريف..... 167
حمص وحبّ للعاصي من أوّل نظرة..... 169
صديقة من حمص..... 173

من دمانا 175
عدنا إلى السويداء! 177
جدة قدّيسة 183
هديّة أمّ 187
حكايات الجدة 190
مدرسة الخنساء 192
من حكايات جدّتي 195
كَرْمُ الحمّص 197
الرحلة إلى الحمّة 205
الصيفيّة في عين عنوب 211
المعروفيّة 214
الجدّة.. ترحل.. وتعود 217
صخرة سيزيف 219
السويداء عنقاء تنهض من الرماد 222
أجلس أمام بيتنا وأتذكّر 226
هل أتخيّل؟ 229